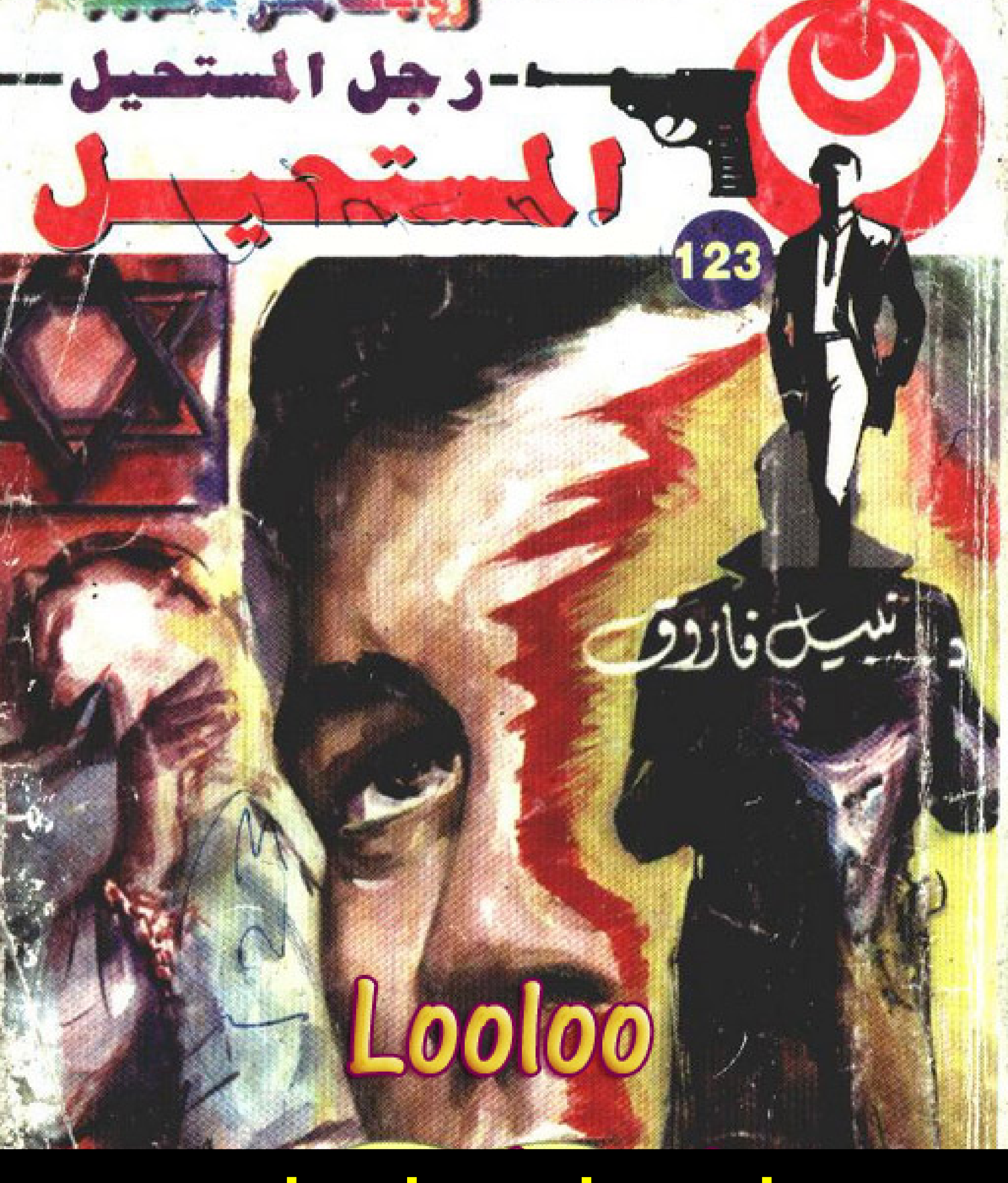

رجل المستحيل
المستحيل
123
د. نبيل فاروق
Looloo

رجل المستحيل

(أدهم صبرى) .. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١) .. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص .. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل .. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو .. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكّر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات .. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١ - رجل واحد ..

نهض فريق من رجال المخابرات المصرية فى احترام، لاستقبال مدير المخابرات العامة، وهو يدلف إلى حجرة الاجتماعات الرئيسية بالجهاز، فى تلك الساعة من النهار، التى لم يعتد أحد عقد اجتماعات خاصة فيها، إلا فى ظروف الحروب والطوارئ القصوى، وتعلّقت الأنظار كلها بالمدير، وهو يتجه إلى مقعده على رأس المائدة، ثم يشير إليهم بالجلوس، قائلاً فى توتر ملحوظ:

- تفضلوا بالجلوس، فلدينا الكثير لدراسته اليوم.

سأله أحدهم فى اهتمام:

- هل من أخبار جديدة من (تل أبيب) يا سيّدى ؟!

لوّح المدير بورقة فى يده، مجيبًا فى حزم مقتضب:

- بالتأكيد.

ثم وضع الورقة أمامه، وأدار عينيه فى وجوههم، مستطردًا:

- كلكم تعلمون أن الإسرائيليين قد نجحوا فى اختطاف السيِّد (قدرى) ، خبيرنا الأول فى التزييف والتزوير ، فى أثناء اشتراكه مع (ن - ١) ، فى عمليته الأخيرة مع السنيورا(*) .

أومأ الجميع برءوسهم إيجابًا فى اهتمام ، فتابع المدير :

- وجميعكم تعلمون أيضًا أن (ن - ١) قد سافر بنفسه إلى (إسرائيل) ، متحديًا كل إجراءات الأمن التى تم تكثيفها هناك ، توقُّعًا لقدومه بالتحديد ، اعتمادًا على خطة متقنة معقَّدة ، وضعها (أدهم) بنفسه ، بناء على خبراته السابقة ، فى التعامل مع الإسرائيليين ، داخل وخارج حدودهم ، وعلى رغبتهم العارمة فى الإيقاع به .. ولقد تعاون اثنان من عملائنا السريين داخل (إسرائيل) مع (ن - ١) ، فعميلتنا (س ١٠٠) استقبلته عند هبوطه على جبل (الخليل) ، ورجل المخابرات الفلسطينى (أديب الريس) كان مفتاح دخوله إلى (تل أبيب) ، على الرغم من كل إجراءات الأمن والحراسة .

(*) راجع قصة (وجه الأفعى) .. المغامرة رقم (١٢١) .

والتقط نفسًا عميقًا ، وهو يتراجع فى مقعده ، مستطردًا :

- والمدهش أن (ن - ١) قد فعلها مرة أخرى ، وأصبح داخل (تل أبيب) بالفعل .

ابتسم أحد الرجال ، قائلاً :

- هذا لا يدهشنى يا سيِّدى ، فسيادة العقيد (أدهم) اعتاد صفعهم دائمًا ، فى كل مواجهة بينهما .

وافقه المدير بإيماءة من رأسه ، وقال :

- هذا صحيح ، ويمكن القول إن هذه النقطة بالذات ، هى ما يعتمد عليه (ن - ١) ، فى خطته لاستعادة (قدرى) ، فمنذ وصوله إلى (تل أبيب) ، وهو يعمل على استفزاز رجال (الموساد) ، وإثارة غضبهم وثورتهم ، على نحو سافر للغاية ، على نحو لم يحدث من قبل قط ، عبر التاريخ كله ، فى عالم المخابرات ، فعالمنا كما تعلمون أيها السادة ، ينفر من العلانية ، ويميل دومًا إلى الصمت والكتمان والسرية .

أجاب رجل آخر فى حزم :

- وجود سيادة العقيد (أدهم) نفسه ، يخالف كل

النظم المتعارف عليها ، فى عالم المخابرات يا سيادة المدير ، فلقد صار أشبه بنجم سينمائى ، منه برجل مخابرات ، يحرص على سرية هويته ، ويحيطها بكل الصمت والكتمان اللازمين .. لقد صار كل رجل مخابرات فى العالم يعرفه ، ويحفظ صورته عن ظهر قلب ، بل ويقرأ ملفه الكامل ، كما يقرأ رواية ممتعة قبل النوم .

اتسعت ابتسامة المدير ، وهو يقول :

ـ وكل هذا لم يمنعه من تحقيق نجاحات مذهلة ، على كل المستويات .

سأله رجل ثالث :

ـ وهل تعتقد أنه سيواصل نجاحاته المذهلة هذه المرة يا سيادة المدير ؟!

صمت المدير ، وتلاشت ابتسامته ، وتراجع بمقعده ، وهو يدفع المائدة بكفيه ، ثم أدار عينيه فى وجوههم مرة أخرى ، قبل أن يلتقط تلك الورقة ، ويلوِّح بها ثانية ، قائلاً :

ـ سؤالك هذا يقودنا إلى الأخبار ، التى وصلت من (تل أبيب) .

ومال إلى الأمام متابعًا ، وقد استعاد معظم توتره :

ـ فهذا الصباح ، ذهب (أدهم) لزيارة رجل (الموساد) (دافيد بلو) فى منزله ، منتحلاً شخصية رئيسه (مائير جولدمان) .. لسنا ندرى ما حدث بالداخل طبعًا ، ولكن أحد جواسيسنا أبلغنا أنه سمع طلقتى رصاص غير متعاقبتين ، من داخل المنزل ، وفى كل مرة ساد التوتر وسط طاقم الحراسة ، ولكن المثير للقلق والمخاوف أكثر ، هو أن (مائير جولدمان) الحقيقى قد ظهر فجأة ، عند منزل (دافيد بلو) ، مع فرقة من قوات الكوماندوز الإسرائيلية ، حاصرت المكان كله ، فى تحفز ملحوظ ، ولقد صعد (جولدمان) بنفسه إلى المنزل ، وكل هذا يعنى فى وضوح تام ، أن أمر (ن ـ ١) قد انكشف .

ومال إلى الأمام أكثر وأكثر ، مستطردًا فى حزم عصبى :

ـ وأن رجال (الموساد) قد أطبقوا الفخ عليه بإحكام شديد هذه المرة .

ثم تراجع ، مضيفًا :

ـ والله (سبحانه وتعالى) يعلم ، كيف يمكن أن ينتهى هذا الأمر .

نطق جملته الأخيرة ، فساد وجوم رهيب حجرة الاجتماعات الرئيسية ، وكل من فيها يتطلع إلى الآخرين فى صمت تام ، وقد اشتركت عقولهم جميعًا فى سؤال مخيف ..

ترى كيف يمكن أن يواجه (أدهم صبرى) هذا الموقف ؟!

وهل سيجد مخرجًا ، من هذا الحصار المحكم ؟!

هل(*) ؟!

* * *

انطلقت ضحكة (جولدمان) عالية ظافرة مجلجلة ، فى البناية التى يقيم فيها (دافيد) ، وفوهات المدافع الآلية العشرة مصوبة نحو (أدهم) ، الذى وقف هادئًا صامدًا ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، وكأنما يشارك الجميع ظفرهم وانتصارهم ، مما أصاب رجال الكوماندوز الإسرائيليين العشرة بدهشة عصبية ، وجعل سباباتهم تتحفز أكثر وأكثر على أزندة مدافعهم ، التى تاقت للانطلاق ، لولا انتظارها لأوامر (جولدمان) ،

(*) لمزيد من التفاصيل ، راجع الجزء الأول (الأصابع الذهبية) .. المغامرة رقم (١٢٢) .

الذى واصلت ضحكته انطلاقها لحظة ، قبل أن تخفت فى توتر ، وتتحول إلى ضحكة مغتصبة ، وهو يقول :

ـ ماذا دهاك يا سيد (أدهم) ؟! هل فقدت روحك الرياضية ، القدرة على تقبل الهزيمة ؟!

هز (أدهم) رأسه نفيًا فى هدوء ساخر ، قائلاً :

ـ مطلقًا يا عزيزى (جولدمان) ، ولكن ينبغى أن تأتى الهزيمة أولاً ، حتى تتقبلها روحى الرياضية .

حدق (جولدمان) فى وجهه لحظة بدهشة ، قبل أن تنفجر فى حلقه تلك الضحكة الساخرة مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ دعابة جديدة مبتكرة يا سيد (أدهم) ، ولكن هذا لا ينفى سخافتها ، فلو أن كل ما يحيط بك لا يستحق لقب الهزيمة ، فما الذى يستحقه إذن ؟! إنك محاصر هنا ، بوساطة فرقة كاملة من رجال الكوماندوز .. أقوى فرق جيش (إسرائيل) ، وعشرة من أقوى وأكثر رجال الفرقة كفاءة ، يصوبون إليك مدافعهم الآلية ، ولا يوجد مخرج واحد ، فى المكان كله ، ووقوعك فى قبضتنا صار حتميًا .

أشار (أدهم) بيده ، قائلاً :

- كل ما قلته أتفق معك عليه يا عزيزى (جولدمان) ، فيما عدا النقطة الأخيرة ، الخاصة بحتمية وقوعى فى قبضتكم .

ابتسم (جولدمان) فى سخرية عصبية ، وهو يقول :

- وهل تعتقد أنه هناك مخرج من هذا الموقف يا سيد (أدهم) ؟!

ارتفع حاجبا (أدهم) ، وهو يشير بيده ، قائلاً فى سخرية :

- بالتأكيد .. أنت تعرف القاعدة الأولى فى عملنا يا رجل (الموساد) المخضرم ، فعندما تضع قدميك فى مأزق ما ، عليك أن تؤمن أولاً سبيل الخروج منه .

سأله (جولدمان) متحديًا :

- وهل يمكنك أن تخبرنى ، كيف السبيل إلى الخروج من هنا ؟!

أدار (أدهم) يديه فى الهواء ، كما يفعل الحواة ، ثم فرد يده اليمنى بغتة ، وهى ممسكة بجهاز تحكم عن بعد ، بدا وكأنما برز فيها من العدم ، وهو يجيب بابتسامة ولهجة ساخرتين :

- بضغطة زر .

سرت موجة عنيفة من التوتر ، فى أجساد رجال الكوماندوز العشرة ، فى حين انتفض جسد (جولدمان) فى قوة ، وهو يهتف :

- ما هذا يا رجل ؟! ألقه أو ...

قاطعه (أدهم) فى سخرية :

- إنه جهاز تحكم عن بعد ، لطيف للغاية يا عزيزى (جولدمان) ، ومن طراز معروف جدًا ، فهو يستخدم للتعامل مع نوع شهير من أجهزة التلفاز ، ولكننى أجريت عليه تعديلاً بسيطًا ، ليتحوّل إلى جهاز توجيه وتفجير عدد من القنابل المحدودة ، المختفية فى أجزاء مختلفة من البناية .

امتقع وجه (جولدمان) بشدة ، وتبادل رجاله العشرة نظرة عصبية ، وسبّاباتهم تتحفز أكثر وأكثر على أزندة مدافعهم ، ثم لم يلبث امتقاع وجه (جولدمان) أن تلاشى فجأة ، وهو يتمتم بلهجة تحمل رنة ساخرة :

- بالتأكيد .

وتحوّلت تلك الرنة إلى ضحكة قوية بغتة ، قبل أن يتابع فى تحد :

- لن تفلح لعبتك هذه المرة يا سيِّد (أدهم) .. ربما ابتلعها ذلك الكمبيوتر الجديد السخيف ، أما أنا فلا ، لأننى أعلم جيدًا أنك قد استخدمت الحيلة نفسها من قبل .

قال (أدهم) فى هدوء ساخر :

- خدعة ؟!

أجابه (جولدمان) ، وهو يلوِّح بسبَّابته فى وجهه :

- نعم يا سيِّد (أدهم) .. خدعة .. إنك تحمل جهاز التحكُّم عن بعد ، الخاص بتلفاز (دافيد) ، محاولاً إقناعنا بأنه يتصل بقنابل وهمية ، لا وجود لها إلا فى رأسك وحده ، والأمر الذى تعتمد عليه تمامًا ، فى خدعتك هذه ، هى أن عقولنا ، وطبيعة عملنا ، يجعلنا مؤهلين ومستعدين لتقبُّل الفكرة وتصديقها ، نظرًا لاحتمال حدوثها .

ثم شدَّ قامته فى تحدٍ أكثر ، وهو يضيف فى صرامة :

- ولكن لا يا سيِّد (أدهم) .. لن يمكنك أن تخدعنا على أرضنا ، ولن ..

قبل أن يتمَّ عبارته ، ضغط (أدهم) زر جهاز

التحكُّم عن بعد ، دون أن تفارقه ابتسامته الساخرة ، و ...

ودوى الانفجار ..

انفجار محدود ، نسف جزءًا من ممر المصعد ، وقطع أحبال صندوقه ، فهوى إلى الطابق الأرضى ، وتحطَّم بدوى أكثر عنفًا ، وتصاعدت مع تحطمه موجة من الغبار ، عبر ممره ، واندفعت من فتحاته الصغيرة ، وقد اتسعت عينا (جولدمان) عن آخرهما فى ذعر ، ودار رجاله حول بعضهم ، وكأنهم يحتشون عن عدو وهمى ، أو خصم غير مرئى ، يطلقون عليه نيرانهم ، أو كأنهم يخشون انفجارًا آخر ، تحت أقدامهم مباشرة ، فى حين قال (أدهم) فى صرامة :

- الضغطة التالية ستنسف هذا الطابق كله ، وستحيلنا جميعًا إلى بقايا آدمية ، وكومة من الأشلاء .. والخيار لك الآن يا عزيزى (جولدمان) .. هل نلقى كلنا حتفنا ، أم نؤجِّل هذا لمرة أخرى ؟!

احتقن وجه (جولدمان) ، وهو يقول فى عصبية :

- هل تساومنى على حياتك أيها المصرى ؟!

هزَّ (أدهم) رأسه ، قائلاً :

ـ مطلقًا أيها الإسرائيلى .. كل ما أفعله هو أننى أتساءل : ترى هل تبلغ رغبتك فى القضاء علىَّ الحد الكافى ، للتضحية بحياتك وحياة رجالك ، فى سبيل إنقاذ (إسرائيل) كلها منى ، أم أنك تفضّل البقاء على قيد الحياة ، لتقضى علىَّ بخسائر أقل ، فى مرة قادمة ، وظروف أفضل ؟! هذا هو السؤال ، ودورك أن تأتى بالجواب ..

ثم استطرد فى سخرية :

ـ هل يبدو هذا عسيرًا إلى هذا الحد ؟!

احتقن وجه (جولدمان) أكثر ، وبدا وكأنه على وشك البكاء ، وهو يحدّق فى وجه (أدهم) بغضب مكتوم ، قبل أن يسأله بالألمانية :

ـ ماذا تقترح ؟!

أجابه (أدهم) باللغة نفسها ، وهو يدرك أن الرجل قد استخدمها بالتحديد ، ليحفظ ماء وجهه أمام رجاله :

ـ فليخفض رجالك أسلحتهم ، ويفسحوا لنا طريق الخروج ، وسنستقل بعدها سيارتك .. أنت وأنا وحدنا ، وننطلق بعيدًا .

سأله (جولدمان) فى عصبية :

ـ ثم ؟!

هزَّ (أدهم) كتفيه ، قائلاً :

ـ ثم أتركك وأمضى لسبيلى يا عزيزى (جولدى) .. إنك تعرفنى جيدًا .. إننى أقرب إلى البشر العاديين ، فلست أميل إلى القتل أو الإيذاء دون مبرِّر .. أليس كذلك ؟!

صمت (جولدمان) ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يدرس الاقتراح ، فى حين تضاعف توتر رجاله ، وهم يضربون الدخان الناشىء عن الانفجار بأيديهم ، فى انتظار قرار رئيسهم ، الذى لم يلبث أن قال فى عصبية ، وباللغة الألمانية نفسها :

ـ الانفجار سيجذب قوات الطوارىء إلى هنا على الفور ، والرجال الذين يحاصرون المبنى لن يتردَّدوا لحظة فى إطلاق النار علينا معًا ، لو رأوك تخرج من المبنى ، ومسدسك مصوَّب إلى رأسى ، فى ظروف كهذه .

تحرَّكت يد (أدهم) فى خفة ، لتلقى شيئًا ما ، فى جيب سترة (جولدمان) ، وهو يقول :

ـ اطمئن .. لن أحمل أية أسلحة .

هتف (جولدمان) منزعجًا ، وهو يحاول التقاط ذلك الشيء من جيب سترته :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابه (أدهم) فى صرامة :

ـ اتركه فى موضعه .. إنه قنبلة .

انتفض جسد (جولدمان) فى عنف ، وهو يهتف :

ـ قنبلة ؟!

أجابه (أدهم) فى سرعة :

ـ نعم .. قنبلة ، ستنفجر بضغطة أخرى على زر جهاز التحكم عن بعد ، لذا فلن أحتاج إلى حمل سلاح .. فقط ستأمر رجالك هؤلاء بالبقاء هنا ؛ لحراسة أو حماية شقة زميلك الوغد ، ثم سنغادر أنت وأنا المبنى فى سرعة وهدوء ، قبل وصول قوات الطوارئ ومكافحة الإرهاب ، وعندما يرانا الجميع نغادر المكان إلى سيارتك ، سيتصورون أنك تسير مع ذلك الوغد (دافيد) ، ولن يعترض أحدهم طريقنا على الفور .

عاد وجه (جولدمان) يحتقن فى شدة ، فى حين دفعه (أدهم) فى شىء من الغلظة ، وهو يضيف فى صرامة شديدة :

ـ المهم أن نتحرك بأقصى سرعة .. هيا .

حاول (جولدمان) أن يقول شيئًا ، لولا تلك الغصة فى حلقه ، التى جعلته يكاد يختنق ، من فرط المرارة والحنق ، إلا أنه بذل جهدًا خرافيًا ، ليلتفت إلى رجاله ، قائلاً بصوت مختنق :

ـ انتظروا هنا ، ولا يتحرك أحدكم ، حتى ...

لم يتمّ عبارته ، مع نظرة الدهشة الحائرة ، التى أطلّت من عيونهم ، فهتف بهم فى عصبية شديدة :

ـ ماذا دهاكم ؟!

أطلق (أدهم) ضحكة ساخرة ، وهو يقول :

ـ إنك تتحدث إليهم بالألمانية .

مطّ (جولدمان) شفتيه فى حنق ، وعاد يلقى أوامره بالعبرية ، وسط الدهشة العارمة للرجال ، والاستنكار العنيف ، الذى زلزل كيانهم كله ، إلا أنهم لاذوا بالصمت والطاعة ، كما تقتضى طبيعة عملهم ، واكتفوا بمراقبة متحفزة للرجلين ، وهما يهبطان فى درجات السلم ، ويغادران المبنى كله ، و(جولدمان) يقول فى سخط شديد :

ـ حاول أن تدرك طبيعة الأمر يا سيد (أدهم) .. إنك هنا فى أرضنا .. فى (تل أبيب) ، ولن يمكنك أن تتحرك وتتعامل بكل الثقة والهدوء ، كما لو أنك

فى وطنك ، أو فى دولة أوروبية أخرى ، أو حتى فى (أمريكا) نفسها .. إنك لن تنجو من هذا الموقف قط .

أجابه (أدهم) فى صرامة :

ـ أترك تقدير هذا الأمر لى .

ثم لكزه فى غلظة ، مستطردًا :

ـ رجال الحراسة ينظرون إلينا فى قلق متحفز .. حاول أن تصرف أنظارهم عنا .

احتقن وجه (جولدمان) مرة أخرى ، وهو يهتف برجال الحراسة الخارجية :

ـ سأعود إلى مكتبى على الفور .. هناك أمور لا بد من متابعتها هناك .. أبلغونا بما ستجده فرقة الطوارئ ومكافحة الإرهاب .. أريد تقريرًا شاملاً ، بأقصى سرعة ممكنة .

أجابه رئيس طاقم الحراسة فى حماس :

ـ بالتأكيد يا مستر (جولدمان) .

أخرج (جولدمان) مفاتيح سيارته فى حنق ، وهو يهمس فى عصبية :

ـ هل من أوامر أخرى ؟!

التقط (أدهم) مفاتيح السيارة من يده ، قائلاً :

ـ نعم .. سأقود أنا .

أجابه (جولدمان) فى حدة :

ـ على الرحب والسعة .. لم يكن ليسعدنى أن أقودك بنفسى إلى طريق الفرار .

ومن بعيد ، انعقد حاجبا رئيس طاقم الحراسة ، وهو يتساءل فى حيرة :

ـ عجبًا ! لماذا يقود أدون (بلو) سيارة أدون (جولدمان) ؟!

هزّ مساعده كتفيه ، قائلاً :

ـ هؤلاء الكبار لهم شئونهم ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، وبينما كانت أبواق سيارات فرقة الطوارئ ومكافحة الإرهاب ترتفع ، وهى تقترب من بعيد ، برز (دافيد) من شرفة منزله فجأة ، وهو يصرخ :

ـ أوقفوا الجاسوس .. إنه يحاول الفرار .

واتسعت عيون الجميع فى دهشة ، وهم يحدّقون فى وجهه ، ثم ينقلون بصرهم إلى سيارة (جولدمان) ، التى هتف هذا الأخير داخلها :

ـ لقد انكشف أمرك .

تحرّك مرفق (أدهم) الأيمن كالقنبلة ، ليهوى

على فك (جولدمان) ، الجالس إلى جواره ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أترك لى أيضًا تقدير هذا الأمر .

وفى نفس اللحظة ، التى سقط فيها رأس (جولدمان) على صدره فاقد الوعى ، ضغط (أدهم) دواسة الوقود فى سيارته ، لتطلق إطاراتها صريرًا مخيفًا ، قبل أن تنطلق بأقصى سرعة ، وتنطلق خلفها مدافع رجال الحراسة كلها ، فى حين راح رئيس فريق الحراسة يصرخ ، وهو يشير بيديه لسيارات فرقة الطوارئ ومكافحة الإرهاب :

ـ إنه جاسوس يحاول الفرار .. أسرعوا .. أسرعوا .

وبلا أدنى تردُّد ، وكجزء من طبيعة عملهم ، انطلقت ثلاث من سيارات (الجيب) العسكرية القوية خلف سيارة (جولدمان) الألمانية الأنيقة ، لتبدأ مطاردة جديدة ، فى شوارع (تل أبيب) ..

مطاردة بين فرقة محدودة من المحترفين ، ورجل واحد ..

رجل يقاتل بكل قوته ..

فى أرض العدو .

★ ★ ★

٢ ـ الصفعة ..

لم تبد (جيهان) فى حالتها الطبيعية على الإطلاق ، وهى تقتحم حجرة (منى) فى المستشفى ، ملوِّحة بورقة فى يدها ، وهاتفة فى انفعال :

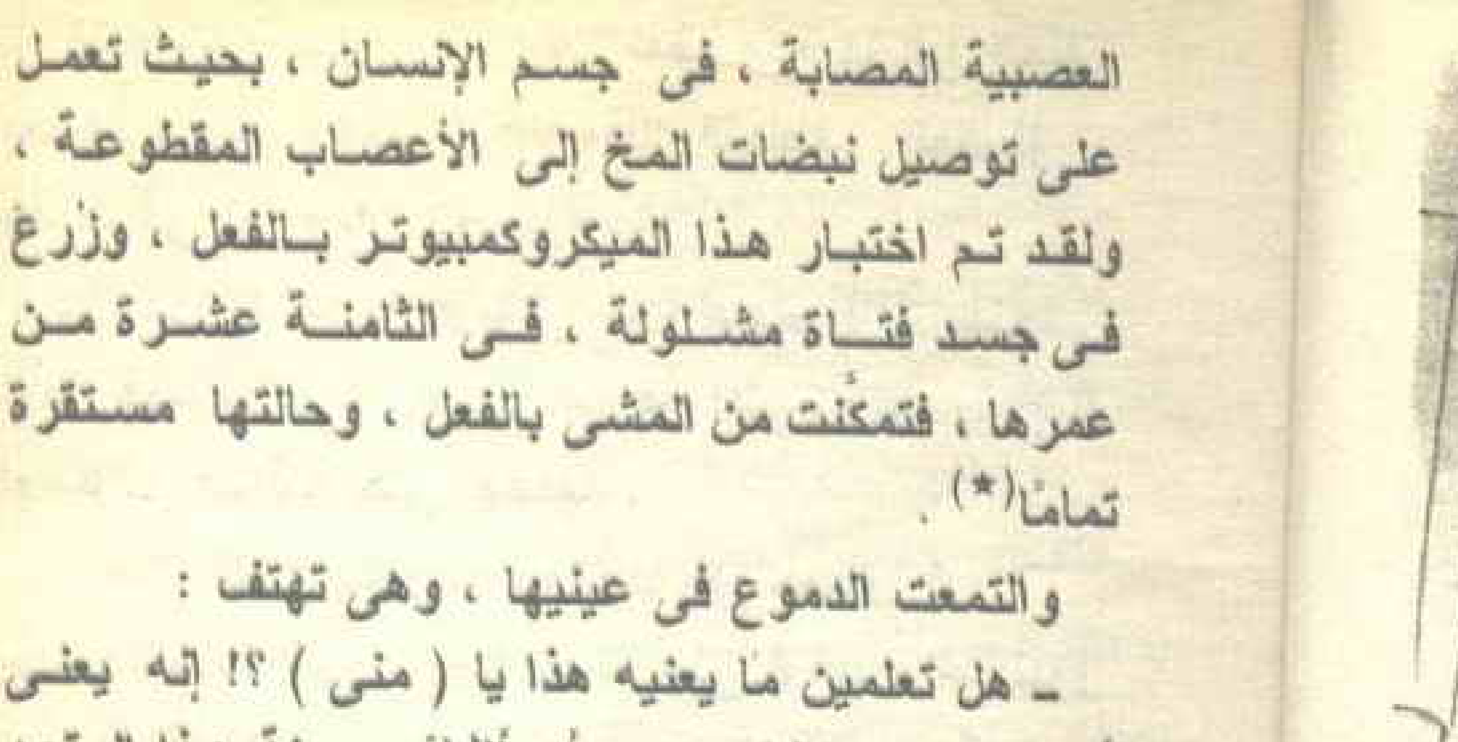
ـ (منى) .. هل رأيت هذا ؟! هل رأيت ما فعله (أدهم) ؟!

خفق قلب (منى) فى عنف ، وهى تسألها :

ـ وما الذى فعله ؟

دفعت (جيهان) مقعدها المتحرِّك نحوها ، وهى تواصل التلويح بالورقة ، مجيبة :

ـ هل تعلمين ما هذه ؟! إنها برقية طويلة ، من مؤسسة (أميجو) الأمريكية .. تلك المؤسسة التى يمتلكها (أدهم) هناك ، وكلماتها تقول : إن إحدى المؤسسات الطبية الأمريكية قد توصلت إلى اختراع مدهش ، عبارة عن ميكركمبيوتر صغير للغاية ، يمكن زراعته تحت الجلد ، أو فى أحد المواقع



لم تبد (چيهان) فى حالتها الطبيعية على الإطلاق ، وهى تقتحم حجرة (منى) فى المستشفى ، ملوّحة بورقة فى يدها ..

العصبية المصابة ، فى جسم الإنسان ، بحيث تعمل على توصيل نبضات المخ إلى الأعصاب المقطوعة ، ولقد تم اختبار هذا الميكروكمبيوتر بالفعل ، وزرع فى جسد فتاة مشلولة ، فى الثامنة عشرة من عمرها ، فتمكنت من المشى بالفعل ، وحالتها مستقرة تماماً(*) .

والتمعت الدموع فى عينيها ، وهى تهتف :

ـ هل تعلمين ما يعنيه هذا يا (منى) ؟! إنه يعنى أنه ليس من الضرورى أن أظلّ سجينة هذا المقعد اللعين إلى الأبد .. هناك أمل يا (منى) .. أمل فى أن أعود إلى الحياة الطبيعية .. هناك أمل بالفعل .

انهمرت الدموع من عينيها ، مع عبارتها الأخيرة ، فربّتت (منى) على كتفيها فى حنان ، وهى تقول متعاطفة :

ـ الأمل فى الله (سبحانه وتعالى) موجود دائمًا يا (جيهان) ، مهما كانت الظروف ، وكم يسعدنى أن منحك (أدهم) هذا الأمل ، و ...

(*) حقيقة علمية ، تم نشرها فى معظم المراجع الطبية ، فى نهايات عام ١٩٩٧ م .

انتفضت (جيهان) ، وهى تدفع مقعدها إلى الخلف بحركة حادة ، وكأنما ترفض ذلك التعاطف المشفق ، وقالت فى شىء من العصبية :

ـ الأمل ؟! كلاَّ يا عزيزتى .. (أدهم) لم يمنحنى الأمل فحسب .. لقد منحنى ما هو أكثر روعة .. إنك لم تقرئى البرقية حتى نهايتها .

وعادت تلوِّح بالورقة ، متابعة فى حماس :

ـ إنهم يقولون : إنه بناءً على أوامر السنيور (أميجو صاندو) ، صاحب المؤسسة ، الذى هو فى الواقع عزيزنا (أدهم صبرى) ، قرَّرت المؤسسة أن تتولَّى إجراء عملية زرع الميكروكمبيوتر الجديد لى ، على نفقتها الخاصة ، بما فى ذلك نفقات السفر والإقامة فى (الولايات المتحدة الأمريكية) ، طوال الفترة اللازمة للعلاج .. هل تعلمين كم ستبلغ تكلفة هذا ؟!

ابتسمت (منى) فى حنان ، قائلة :

ـ لست أعتقد أن هذا سيعنى (أدهم) كثيرًا .

هتفت (جيهان) ، وكأنها لم تسمعها :

ـ ثلاثة ملايين دولار .

تمتمت (منى) ، وقلبها يرتجف بين ضلوعها ، من فرط التأثُّر :

ـ هذا هو (أدهم) الذى نعرفه .

هتفت (جيهان) ، وهى تضمّ قبضتها إلى صدرها فى حرارة :

ـ يا إلهى ! كم أحبه .

انتفض جسد (منى) فى عنف ، وحدَّقت فيها بدهشة مستنكرة ، فتراجعت (جيهان) فى مقعدها ببطء ، دون أن يرتسم على وجهها أدنى شعور بالخطأ ، وأطلَّت من عينيها نظرة متحدية ، وهى تقول :

ـ لست أظنك تجهلين هذا .

أشاحت (منى) بوجهها ، قائلة فى عصبية :

ـ لقد انتهينا من مناقشة هذا من قبل .

أجابتها فى خبث :

ـ ولكننا لم نحسمه بعد .

قالت (منى) فى توتر :

ـ ليس لنا شأن فى حسمه ، فهذا يخصّ (أدهم) وحده .

شدّت (جيهان) قامتها فى اعتداد ، وهى تقول :

ـ بالتأكيد .

ثم عادت تلوّح بالورقة ، مستطردة :

ـ وعندما يعود ، سيكون عليه أن يحسمه بنفسه .. وفورًا .

قالتها ، وأدارت مقعدها المتحرّك ، واندفعت به تغادر الحجرة ، تاركة (منى) خلفها شاحبة الوجه ، تدير الأمر فى رأسها مرات ومرات ، قبل أن تغمغم :

ـ المهم أن يعود إلينا سالمًا .

نعم يا (منى) ..

المهم أن يعود (أدهم صبرى) ..

وأن يعود سالمًا ..

من أرض العدو ..

(إسرائيل) ..

★ ★ ★

على الرغم من قوة سيارات (الجيب) العسكرية ، والتجهيزات القوية بها ، لمواجهة الطوارئ ومكافحة الإرهاب ، إلا أن حجمها لم يكن يسمح لها قط بالسباق والمناورة ، داخل مدينة حديثة الطراز ،

مثل (تل أبيب) ، على عكس سيارة (جولدمان) الرياضية الصغيرة ، التى انطلق بها (أدهم) فى دقة ومهارة مدهشتين ، عبر شوارع (تل أبيب) ، وهو يثب من شارع إلى آخر ، ومن حى إلى حى ، كما لو كان أرنبًا نشيطًا ، تطارده خنازير ضخمة سمينة ..

وفى غضب هادر ، هتف قائد فرقة الطوارئ ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى :

ـ ماذا دهاكم جميعًا ؟! أين رجال الشرطة ؟! ذلك الجاسوس ينطلق فى المدينة ، كما لو أنها كلها مِلك ليمينه !! حاولوا سد الطرقات فى وجهه ، أو وضع الحواجز فى طريقه .. افعلوا أى شىء بحق الشيطان !

استقبل (أدهم) الهتاف ، عبر جهاز اللاسلكى الخاص ، فى سيارة (جولدمان) ، فابتسم فى سخرية ، مغمغمًا :

ـ عجبًا ! ولِمَ لا يكون بحق الله (سبحانه وتعالى) ؟!

ثم انحرف بالسيّارة بحركة حادة ، واندفع نحو شارع جانبى ، عبره بسرعة خرافية ، وهو يهتف فى رواده ، الذين راحوا يعدون فى هلع ، مفسحين له الطريق :

ـ معذرة أيها السادة .. تقبّلوا أسفى ألف مرة ، ولكننى مضطر .

واندفع عبر الطرف الآخر للشارع ، إلى شارع رئيسى كبير ، انحرف فى مساره بسرعة مخيفة ، انطلق معها صرير عنيف ، من إطارات سيارة (جولدمان) ، جذب انتباه الجميع وأثار توترهم ، والسيارة تنطلق فى نهر الطريق ، وتناور السيارات العديدة فيه بخفة وبراعة مذهلتين ..

وانطلقت دراجتان آليتان ، من درّاجات شرطة المرور ، خلف السيارة الرياضية ، وقائد إحداهما يهتف عبر اللاسلكى :

ـ الجاسوس فى شارع (بن جوريون)(*) ،

(*) (دافيد بن جوريون) ١٨٨٦ ـ ١٩٧٣ م : أوّل رئيس وزراء لـ (إسرائيل) ، وأوّل وزير دفاع لها (١٩٤٨ ـ ١٩٥٣ م) (١٩٥٥ ـ ١٩٦٣ م) ، وُلد فى (بلونيسك) الروسية ـ آنذاك ـ والبولندية حاليًا ، واستوطن (فلسطين) منذ عام ١٩٠٦ م ، وفى عام ١٩١٩م أصبح أحد زعماء الحركة الصهيونية ، ويعتبر مؤسّس الجالية الصهيونية فى (فلسطين) عام ١٩٣٠ م ، وكان سكرتيرًا عامًا للهيستدروت من (١٩٢١ ـ ١٩٣٥ م) ، ثم رئيس الحركة التنفيذية اليهودية (١٩٣٥ ـ ١٩٤٨ م) ، تقاعد عام ١٩٦٣ ، وظل يكتب بعض الكتب ، التى تحوى خبراته ، حتى وفاته .

ونحن نطارده ، وسنحاول سد كل الطرقات الفرعية فى وجهه ، و ...

لم يكن قد أتمّ عبارته بعد ، عندما انحرف (أدهم) بسيارته مرة أخرى بغتة ، ووثب إلى شارع فرعى آخر ، فى نفس الاتجاه الذى أتى منه ، فهتف رجل المرور ، وهو يندفع خلفه بأقصى سرعته :

ـ اللعنة ! لقد اختفى فى شارع جانبى ، و ...

مرة أخرى بتر عبارته ، مع دخوله ذلك الشارع الجانبى ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، عندما وجد نفسه يندفع بسرعته القصوى ، نحو سيارة (جولدمان) ، التى توقّفت تمامًا ، على مسافة مترين فحسب ، من مدخل الشارع الجانبى ..

وضغط الرجل فرامل درّاجته الآلية بكل قوته ..

وكان هذا بالضبط ما يريده (أدهم) ..

فقد أطلق إطارا الدرّاجة الآلية صرخة عجيبة ، قبل أن يختلّ توازنها كلها ، فتنقلب فى عنف ، ويطير راكبها عنها ، ليرتطم بمؤخرة سيارة (جولدمان) فى عنف ، فى حين انزلقت الدرّاجة الآلية نفسها بسرعة مخيفة ، نحو السيارة نفسها ..

ولكن (أدهم) انطلق بسرعة مباغتة ..

وسقط رجل المرور الإسرائيلى أرضًا ..

وارتطمت به دراجته فى عنف ، فى نفس اللحظة التى ظهر فيها زميله ، عند بداية الشارع الجانبى ، وهو يدلف إليه بأقصى سرعته ..

ومرة أخرى ، انطلق صرير مخيف ، وارتطمت دراجة الشرطى الثانى بدراجة زميله ، ثم وثبت فى الهواء على نحو عجيب ، قبل أن تهوى مرتطمة بالأرض فى عنف ..

وعبر مرآة سيارته الداخلية ، شاهد (أدهم) ما يحدث خلفه ، فتمتم :

ـ يبدو أننى مضطر لإثارة فوضى عارمة خلفى ، أينما ذهبت .

استعاد (جولدمان) وعيه فى تلك اللحظة ، فهزّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ أين أنا ؟ هل ..

قبل أن يتمّ عبارته ، اندفع مرفق (أدهم) يضربه فى أنفه بقوة ، وهو يقول :

ـ ما زلت فاقد الوعى أيها الوغد .

سقط رأس (جولدمان) مرة أخرى على صدره ، وارتفع من أنفه شخير عجيب مختنق ، وهو يفقد وعيه ، و(أدهم) ينطلق بالسيارة ، مغادرًا ذلك الشارع الجانبى ، لينضمّ إلى نهر السيارات الطبيعى ، فى الشارع الرئيسى ، بهدوء تام ، وكأن شيئًا فى الدنيا لا يقلق باله ، وهو يتمتم :

ـ تُرى ما الذى تفعله الآن يا (دافيد) ؟! هل تستشير ذلك الكمبيوتر العبقرى ، أم ستفكِّر فى استخدام عقلك البشرى مرة ؟

قالها ، وأطلق ضحكة ساخرة قصيرة ، قبل أن يربِّت على ركبة (جولدمان) الفاقد الوعى ، مستطردًا :

ـ اطمئن يا عزيزى (جولدمان) .. إنها ليست نهاية اللعبة بعد .

ثم راح يطلق من بين شفتيه صفيرًا منغومًا ، وهو يتحرّك بسيارة (جولدمان) ، فى خفة وسرعة ، بين السيارات العديدة ، التى ازدحم بها الشارع ، فى تلك الفترة من النهار ..

ورويدًا رويدًا ، راحت السيارة تختفى وسط الزحام ..

وتتلاشى ..

بمنتهى الهدوء ..

★ ★ ★

احتقن وجه (دافيد بلو) فى شدة ، وهو يصرخ فى وجه رئيس فرقة الطوارئ كالمجنون :

ـ حمقى .. أغبياء ! كيف تقول بهذه البساطة : إنه قد أفلت منكم ؟! كيف تجرؤ على الجهر بفشلك على هذا النحو ؟!

عقد رئيس الفرقة كفيه خلف ظهره ، وشدَّ قامته فى صرامة ، وهو يجيب :

ـ أعتقد أن الفشل ليس سمة فردية لنا يا أدون (بلو) ؛ فلولاه ما كانت بكم حاجة إلينا .

احتقن وجه (دافيد) أكثر ، وهو يقول فى حدة :

ـ هل تدرك معنى ما تقوله يا رجل ؟!

أجابه الرجل بنفس الصرامة :

ـ لست أدركه فحسب ، وإنما سيتضمَّنه تقريرى الرسمى أيضًا ؛ لأثبت أننا لم نقصِّر فى عملنا قط ،

فطبقًا لتدريباتنا ، تحركنا فور رصد الانفجار ، ووصلنا إلى هنا خلال سبع دقائق فحسب ، وهو معدَّل ممتاز ، بالنسبة لازدحام الطرقات ، فى مثل هذه الساعة .

صاح به (دافيد) فى غضب :

ـ ومعدَّل فاشل ، بالنسبة لفرقة ، يفترض أن تكافح الإرهاب ، فلو أنك تجهل هذا ، دعنى أخبرك يا رجل ، أن أية عملية إرهابية متقنة ، تستغرق بين دقيقتين وثلاث دقائق على الأكثر ، وهذا يعنى أن فرقتكم الرائعة ستصل بعد أربع دقائق من انتهاء العملية الإرهابية .. يا له من معدَّل ممتاز !

كظم رئيس فرقة الطوارئ غضبه ، وهو يقول :

ـ لا بأس يا أدون (بلو) .. من الطبيعى أن تمنحك وظيفتك الحقَّ فى السخرية من الآخرين بعض الوقت ، ولكن الشىء الذى تعلمناه دومًا ، هو أن من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا .

انعقد حاجبا (دافيد) فى شدَّة ، وهو يردِّد :

ـ نعم .. من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا .

ثم لوَّح بذراعه ، صائحًا :

ـ هيا .. اغرب عن وجهى ، واكتب ما يحلو لك فى تقريرك ، أما أنا ، فسأعتمد على رجال حقيقيين .

احتقن وجه رئيس الفرقة هذه المرة ، وهو يقول :

ـ حسن يا أدون (بلو) .. أتعشّم أن ينجح هؤلاء الرجال الحقيقيون ، فيما فشلت فيه أنت .

ثم استدار بأسلوب عسكرى ، وهو يستطرد ، فى صرامة تحوى رنة ساخرة :

ـ فذلك الجاسوس ما زال حرًا طليقًا .

شعر (دافيد) بغضب هادر ، يتصاعد فى أعماقه ، وهو يصفق باب منزله خلف الرجل ، ثم يلتفت إلى زوجته ، هاتفًا :

ـ اللعنة !

ألقت نظرة باردة عليه ، وهى تضع كيسًا من الثلج على رأسها ، قائلة :

ـ ماذا ستفعل هذه المرة ؟! هل ستستشير ذلك الكمبيوتر ؟!

أجابها فى صرامة :

ـ ولِمَ لا ؟!

ثم أشعل جهاز الكمبيوتر الخاص به ، مستطردًا :

ـ إننى ، على عكسكم ، أؤمن تمامًا بالتكنولوجيا والتقدّم .

غمغمت ، وهو يضرب أزرار الكمبيوتر فى عصبية :

ـ ومن يرفضهما ؟!

ونهضت إليه ، متابعة :

ـ كل ما فى الأمر هو أننى لا أومن بقدرة الكمبيوتر على منافسة العقل البشرى ، فى أمور التحاور والتناحر .. ربما فى تصويب الأهداف ، أو الرياضيات ، أو الفيزياء ، ولكن ليس فى الأمور العقلية البحتة .

قال فى حدة :

ـ وماذا عن ذلك الكمبيوتر ، الذى هزم بطل العالم فى الشطرنج ؟!

هزّت كتفيها ، قائلة :

ـ الشطرنج له قواعد محدودة ، لا يمكن الخروج عنها ، ونقطة تفوّق الكمبيوتر هنا هو قدرته على حفظ ملايين المباريات السابقة ، وحفظ كل خطوة ، منذ بداية المباراة ، ولكن من المؤكد أنك ستربكه تمامًا ، لو كانت اللعبة بلا قواعد ، تمامًا مثل لعبتك مع (أدهم صبرى) .

أجابها فى حزم ، وهو يراجع كل النتائج ، على شاشة الكمبيوتر :

- كل شىء فى الوجود له قواعد .. حتى مخالفة القواعد بشكل دائم هى أيضًا قاعدة ثابتة ، يمكن الرجوع إليها ، وأنا واثق من أن هذا الكمبيوتر سيتحوَّل فى النهاية إلى أقوى خصم لذلك المصرى .

تنهَّدت ، وهى تجلس على مقعد قريب إليه ، قائلة :

- اسمع يا (دافيد) .. دعنا لا نخدع أنفسنا .. أنت وأنا قرأنا ملف (أدهم صبرى) هذا ، منذ بدأنا عملنا فى (الموساد) ، وكلانا يدرك جيدًا مدى قوته ومهارته ، وقدراته المدهشة اللا محدودة ، حتى إننا كنا ، على الرغم من كونه عدوًّا ، نعتبره مثلاً أعلى ، وقدوة نتمنى الوصول إليها والاحتذاء بها .

وهزَّت رأسها ، قبل أن تتابع :

- هل تعلم .. لقد فشلت فى التعامل معه اليوم ؛ لأن جسدى كله كان يرتجف انفعالاً ، منذ وقع بصرى عليه ..

التفت إليها فى استنكار غاضب ، إلا أنها لم تنتبه إلى ملامحه ، وهى تكمل :

- لم أصدِّق أنه هو .. لقد كان تنكُّره فى هيئة (جولدمان) مذهلاً ، حتى أننى أنا نفسى كدت أقسم أنه (جولدمان) الحقيقى ، وأن شيئًا ما قد دفعه لخيانتنا ، على نحو ما ، وعندما واجهته ، وصوَّبت إليه مسدسى ، لم أتصوَّر لحظة أننى أستطيع الظفر به .

هتف فى حدة :

- لماذا ؟! إنه مجرَّد رجل .

أشارت بسبَّابتها ، قائلة :

- ليس رجلاً عاديًّا يا (دافيد) .

صاح محنقًا :

- بل مجرَّد رجل عادى .

مالت نحوه ، قائلة بابتسامة ساخرة :

- خطأ يا (دافيد) .. خطأ .. لا تنس القاعدة الذهبية فى عملنا .. لا تهوِّن من قوة خصمك أبدًا ، وإلا خسرت معركتك أمامه .

ثم عادت تتراجع ، مضيفة :

- فلنعترف إذن بالحقيقة ، وبأن (أدهم صبرى) ليس رجل مخابرات عاديًّا ، فلو أنه كذلك ، لكان هذا

يعنى أننا أفشل جهاز مخابرات فى العالم كله ، ما دام رجل مخابرات عادى يفعل بنا كل هذا ، ويثير أقصى درجات غضبنا وجنوننا ، ثم يفلت منا على هذا النحو ، فى قلب أرضنا وعالمنا ..

انعقد حاجباه فى شدَة ، وهو يستمع إليها فى توتر ، وهى تتابع :

ـ الأفضل إذن أن نعترف بقوته وقدراته ، وأن نبنى خطتنا على هذا الأساس .. أليس كذلك ؟!

ازداد انعقاد حاجبى (دافيد) ، ورفع سبَّابته ليداعب ذقنه ، وهو يفكِّر فى عمق ، قبل أن يدير عينيه إليها ، قائلاً :

ـ هل تعلمين .. أنت على حق تمامًا .

ابتسمت ، قائلة فى دلال :

ـ أشكرك .

استدار إلى الكمبيوتر فى حماس ، مكملاً :

ـ لقد أسأنا تقدير (أدهم صبرى) بالفعل ، على الرغم من كل إجراءات الأمن ، التى أحطنا بها (إسرائيل) كلها ، و(تل أبيب) خاصة ، والاستحكامات المدهشة للبيت الكبير ، التى يستحيل

معها بلوغ زنزانة (قدرى) هذا .. لقد تعاملنا معه باعتباره شيئًا فذًا ، خارقًا للمألوف ، لا بد أن نواجهه بأجهزة الكمبيوتر ، والتكنولوجيا ، والليزر ، وكل ما لا نستخدمه فى الظروف العادية .

وبضغطة زر ، أغلق جهاز الكمبيوتر ، دون اتباع الإجراءات التنظيمية المعتادة(*) ، ثم هبَّ واقفًا ، وهو يستطرد فى انفعال :

ـ ولكن الحقيقة أن (أدهم صبرى) مجرَّد رجل مخابرات .. ربما كان فذًا مدهشًا ، ولكنه فى النهاية مجرَّد بشر ، يمكن أن يختفى هنا أو هناك ، ولكنه لن يتلاشى قط .

والتقط سمَّاعة الهاتف ، ودق أزراره فى سرعة ، وهو يقول فى حزم وصرامة :

ـ فالبشر لا يتلاشون دون أثر .

(*) من الخطأ إغلاق جهاز الكمبيوتر فجأة ، فى أثناء التعامل معه ، لأن هذا يؤدِّى فى المعتاد إلى إتلاف بعض وحداته أو خلاياه الرئيسية ، على نحو يعرف باسم (Lost Clusters) ، لذا فالواجب ، قبل إغلاق الجهاز أن يتمّ إنهاء كل البرامج العاملة ، وإعادته إلى حالته الأوليّة ، ثم إنهاء عمله بالوسيلة الصحيحة .

لم تفهم ما يعنيه بانتفاضته المفاجئة هذه ، إلا عندما بدأ يتحدث لفريقه الخاص ، قائلاً بلهجة آمرة حاسمة :

ـ اسمعنى جيدًا يا (بن عازار) .. أنا (بلو) .. أحضر الفريق كله ، وأبلغهم هذه الأوامر الجديدة .. أريد كتيبة كاملة من الكوماندوز ، لتمشيط (تل أبيب) كلها .. سنفتش كل حى .. كل شارع .. كل بيت .. بل كل شبر فيها .. أغلقوا مخارجها ومداخلها بلا استثناء .. لا دخول أو خروج ، مهما كانت الأسباب .. وكل حى يتم تفتيشه يغلق تمامًا ، وتعلن فيه حالة حظر التجوال .. أطلقوا النار على كل من يخالف الحظر ، دون إنذار أو تحذير .. سيتمّ التفتيش من الخارج إلى الداخل ، بحيث نحكم الحصار فى كل خطوة .. أوراق الهوية كلها يتمّ فحصها بوساطة خبراء .. اجذبوا كل اللحى والشوارب ، لتتيقنوا من أنها حقيقية .. اقتلوا كل من يستخدم لحية أو شاربًا مستعارًا ، مهما أعطاكم من تبريرات .. هل سمعت ما قلته وسجّلته يا (بن عازار) ؟! عظيم .. نفذ فورًا .

أنهى عبارته ، وأنهى معها الاتصال فى عنف ، فهتفت زوجته مبهوتة :

ـ يا للشيطان ! ما الذى فعلته يا رجل ؟! إننى لم أكن أقصد ربع هذا ، عندما قلت ما قلته ؟!

أجابها فى صرامة :

ـ لن أسمح لـ (أدهم صبرى) هذا بصفعنا مرة أخرى أبدًا .

هتفت به :

ـ تسمح أو لا تسمح .. ليس هذا هو المهم .. ألم تدرك ما فعلته ؟! لقد أشعلت حالة طوارئ قصوى ، لم تشهدها (إسرائيل) قط ، منذ حرب (السويس) ، على نحو سيثير حفيظة الجميع .. التجار ، ورجال الأعمال ، والأطباء ، والمرضى ، وكل من يحتاج عمله إلى سهولة الحركة ، أو السفر من وإلى (تل أبيب) ، وعلى رأس هؤلاء رجال الحكومة والسياسة .. وكل هذا دون الرجوع إلى رؤسائك ، على الرغم من أن موقعك لا يتيح لك هذا قط .

امتقع وجهه ، وهو يتمتم :

ـ يا للشيطان !

ثم التفت إليها ، صارخًا فى غضب :

ـ أنت دفعتنى إلى هذا .. أنت استفززت مشاعرى ، ودفعتنى إلى هذا التجاوز .

صاحت به :

ـ لا تلق أخطاءك علىَّ .. المفترض أنك صاحب الحكمة والقرار .. ها هو ذا الهاتف أمامك .. اتصل برجالك ، وألغ أوامرك هذه .

صرخ :

ـ ألغيها ؟! بعد خمس دقائق فحسب من إلقائها ؟! ألا تدركين ما يمكن أن يعنيه هذا ؟! أنني شخص أحمق متذبذب .. لا يدرى ما الذى يفعله ، ولا أى قرار ينبغى اتخاذه ، حتى أنه يعلن الطوارئ القصوى ، ثم يلغيها بعد دقائق معدودة .

وعضَّ شفتيه فى عصبية ، مستطردًا :

ـ المأساة الأكبر أن كل الأوامر ، التى تتم عبر هذا الرقم الخاص ، يتمَّ تسجيلها ؛ للرجوع إليها كسند قانونى فيما بعد ، وإذا ما أصدرت أمرًا بإلغائها ، فلا بد أن يتمَّ هذا عبر الرقم نفسه ، ليتم تسجيل التاريخ والساعة أيضًا ، وهذا يعنى أن يتمَّ تسجيل الفضيحة رسميًا .

اتسعت عيناها فى ذعر ، وهى تلقى نفسها على أقرب مقعد إليها ، وتلوِّح بيدها بلا معنى ، مغمغمة :

ـ يا للشيطان ! إنها مصيبة ! كارثة ! الأمر لن يستفز تلك الفئات التى تحدَّثنا عنها فحسب ، وإنما سيستفز على رأسهم رجال الصحافة والإعلام ، وسيتحوَّل الأمر إلى فضيحة عالمية ، وضجة إعلامية ، لا يمكن إخمادها إلا بـ ...

بترت عبارتها دفعة واحدة ، واتسعت عيناها عن آخرهما ، فى ارتياع أكثر وأكثر ، فسألها فى عصبية :

ـ إلا بماذا ؟!

أدارت عينيها إليه ، وارتجفت شفتاها ، وهى تجيب :

ـ بكبش فداء .

انتفض جسده فى عنف ، وخُيِّل إليه أن ساقيه تعجزان عن حمله ، فهوى بدوره على مقعده ، وهو يهمهم بكلمات غير مفهومة ، قبل أن يدفن وجهه بين كفيه ، قائلاً فى مرارة :

ـ يا للكارثة ! ماذا فعلت بنفسى ؟!

قالت بصوت أقرب إلى البكاء :

ـ كان ينبغى أن تتروَّى .

هتف :

ـ ولكننى مؤمن تمامًا بأن هذا سيحكم قبضتنا على

ذلك الشيطان .. إننى مقتنع تمامًا بما أمرت بـه ، ولكننى أخشى بالفعل نظرية كبش الفداء هذه .

هزّت رأسها ، قائلة :

ـ ينبغى أن .....

بتَرت عبارتها مرة أخرى بغتة ، فهتف بها فى عصبية :

ـ ماذا هناك هذه المرة ؟! مصيبة أكبر ؟!

اعتدلت بحركة حماسية مباغتة ، وهى تقول :

ـ قل لى : ما الذى يثبت أنك الشخص الذى أجرى الاتصال ؟!

أجابها فى حدة :

ـ قلت لك : إن كل المكالمات على هذا الرقم الخاص ، يتمّ تسجيلها ، وتحديد تاريخها وساعتها ، و ...

قاطعته فى حماس :

ـ وماذا ؟! كل هذا لا يثبت أنك صاحب الأمر .

أشار إلى عنقه ، قائلاً :

ـ وماذا عن الصوت ؟! هه .

مالت نحوه ، قائلةً فى خبث :

ـ هناك من يمكنه تقليد الأصوات بدقة مذهلة .

اتسعت عيناه عن آخرهما ، عندما فهم ما ترمى إليه ، وحدّق فى وجهها لحظة ، قبل أن يتراجع فى مقعده ببطء ، ويعقد حاجبيه فى شدة ، ثم يلتقط سلك الهاتف بالتأكيد .. لقد كان هنا بالفعل ، والكل يعلم هذا الآن ، ولن يكون من العسير عليه أن يضيف وصلة ما إلى أسلاك الهاتف .

رفعت أحد حاجبيها ، قائلة بابتسامة ماكرة :

ـ أعتقد أن لدى وصلة كهذه بالفعل .

انطلقت من حلقه ضحكة مجلجلة ، بدا فيها ارتياحه واضحًا صافيًا ، وهو يقول :

ـ عظيم .. فى هذه الحالة يمكننا أن نترك الأمور تمضى ، وأن يتمّ تنفيذ الأوامر بالفعل ، فإما أن تنجح سياسة السوار المحكم هذه فى الإيقاع بذلك الشيطان ، فيهنئ الجميع صاحب الفكرة العبقرية ، أو تفشل فى هذا ، وهذا ما أصرّ على أنه لن يحدث أبدًا ، فيبحث الجميع عن كبش الفداء ، ولا يجدون سوى الهدف نفسه .. السيِّد (أدهم) .. (أدهم صبرى) .

قالها ، وانفجر ضاحكًا مرة أخرى ، وشاركته زوجته ضحكته هذه المرة ، و ...

وفجاة ، ارتفع رنين الهاتف ..

وبحركة سريعة ، التقط (دافيد) سمّاعته ، وهو يقول :

ـ (دافيد بلو) .

أتاه صوت معاونه (بن عازار) ، وهو يهتف :

ـ سيّدى .. لقد عثروا على أدون (جولدمان) .

اعتصرت أصابع (دافيد) سمّاعة الهاتف ، وهو يهتف فى انفعال :

ـ عثروا عليه ؟!

أجابه (بن عازار) فى عصبية :

ـ نعم يا أدون (بلو) ، ولكن .. يا إلهى ! لن يمكنك أن تصدّق .. لن يمكنك أن تصدّق أبدًا .

وهوى قلب رجل (الموساد) بين قدميه .. بمنتهى العنف .

★ ★ ★



٢ـ السوار ..

أمسك (قدرى) الجزء العلوى من كرشه فى ألم ، وأطلق من أعمق كيانه زفرة ملتهبة ، وهو يهتف بكل سخط وغضب الدنيا :

ـ يا للأوغاد ! إننى أكاد أهلك جوعًا ، ورائحة ذلك الطعام الشهى بالخارج ستقتلنى .

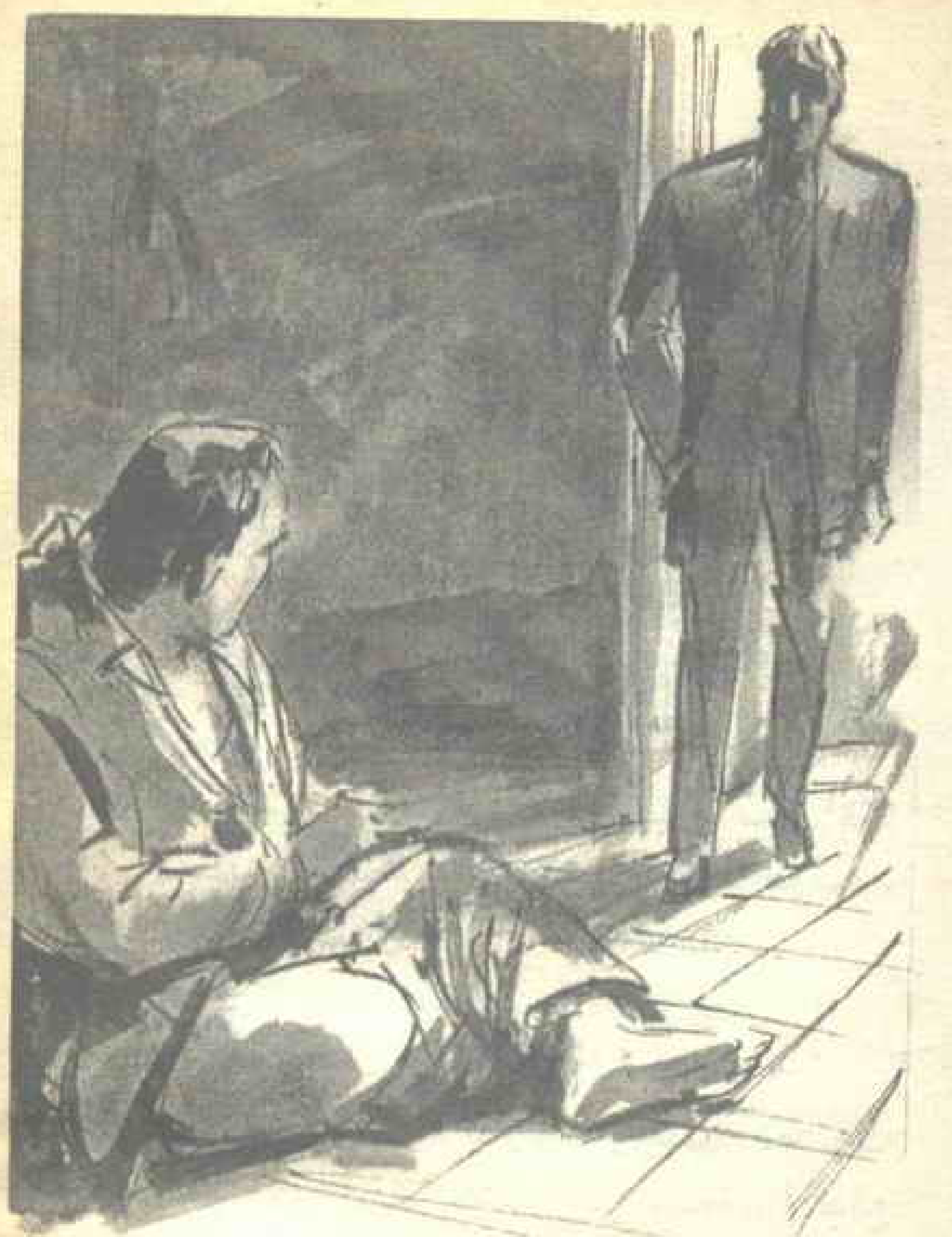
كان يتحدّث ، وهو يجلس فى ركن الحجرة ، ويداه تعملان فى سرعة ودقة ، لصنع شىء ما ، بكل ما حصل عليه من عينات ، من أجزاء حجرته المختلفة ، قبل أن يخليها الإسرائيليون من الأثاث تمامًا ، ويتركونه ليرقد أرضًا ..

وبشىء من الإعجاب ، قلّب تحفته بين أصابعه فى حرص ، مغمغمًا :

ـ رائع .

ثم أخفاها فى طيات ثيابه فى خفة ، مستطردًا :

ـ أتعشّم أن تؤدّى دورها جيّدًا .



لم يكد يتمَّ عبارته حتى انفتح باب الحجرة ، وبرز عنده رجل الموساد (إفرام ياهو) ، وهو يبتسم ابتسامة واثقة ..

لم يكد يتمَّ عبارتـه ، حتى انفتـح بـاب الحجـرة ، وبرز عنده رجل الموساد (إفرام ياهو) ، وهو يبتسم ابتسامة واثقة ، قائلاً :

ـ أهلاً يا سيِّد (قدرى) .. كيف كانت ليلتك ، على هذه الأرضية الرطبة ؟! هل نمت جيِّدًا ، وخاصة مع معدتك الخاوية ؟!

تجـاهل (قـدرى) عبارتـه وأسئلته ، وهـو يلتقـط نفسًا عميقًا ، ليملأ كيانه برائحة ذلك الطعام الشهى ، التى ملأت الحجرة ، مع انفتاح بابها ، ثم أغلق عينيه ، فى محاولة لكتمان صرخات معدته ، وهو يقول :

ـ لقد أفلت (أدهم) منكم .. أليس كذلك ؟!

اتسعت عينا (إفـرام) لحظـة ، وارتجفت شـفتاه ، وهمـا تفقـدان ابتسـامته الواثقـة ، قبل أن يبذل جهدًا لاستعادتها فى سرعة ، وهو يقول :

ـ إنها مسألة وقت .

انفجرت ضحكة (قدرى) عالية مجلجلة ، حتى إن جسده كلـه ارتـجَّ معهـا ، وبخاصـة معدتـه الخاويـة ، فاحتقن وجه (إفرام) فى شدة ، وانقلبت سحنته فى غضب ، عندما أعقب (قدرى) ضحكته بهتاف ساخر :

- هذا ما تقولونه دائمًا .

أجابه (إفرام) فى حدة :

- لم تعد مجرد أقوال يا سيد (قدرى) .. لقد تحولت إلى أفعال وإجراءات عنيفة ، لم تشهد (تل أبيب) لها مثيلاً ، فى حياتها كلها .

هز (قدرى) كتفيه ، قائلاً فى سخرية :

- هذا أمر طبيعى ، فكعادته ، كلما هبط فى مكان ما ، فهو يقلبه رأسًا على عقب .

ثم قهقه مرة أخرى ، قبل أن يضيف :

- ولن يجد بالطبع أفضل من هذه الأرض التى تحتلونها ، ليمارس فيها هوايته المحببة .

قال (إفرام) فى غضب صارم :

- رجلكم لا شأن له بهذا يا برميل التفاهات .. إننا نحن من فعلها .. لقد قررنا أن نحكم حصارنا حوله ، حتى يختنق داخل سوار محكم ، لا فكاك منه .

هز (قدرى) كتفيه مرة أخرى ، وهو يقول :

- وتقول : إنه لا شأن له بهذا ؟!

ثم انطلق يضحك مرة أخرى ، ويقهقه بصوت مرتفع ، على نحو استفز الإسرائيلى بشدة ، فاندفع نحوه ، وهوى على وجهه بصفعة قوية ، صارخًا :

- اخرس .

انتفض جسد (قدرى) فى عنف ، مع تلك الصفعة ، واحتقن وجهه بشدة ، من فرط الغضب والانفعال ، فى حين واصل الإسرائيلى فى حدة :

- لن تغرب شمس اليوم ، حتى تكون أنت وقادتك فى (القاهرة) ، قد أدركتم أن العبث مع الإسرائيليين لا يؤدى إلى الربح قط ، حتى ولو كان العابث هو أفضل رجالكم .. اليوم ، ومع غروب الشمس ، سيصبح أسطورتكم فى قبضتنا ، وعندئذ ..

التمعت عيناه ببريق وحشى عجيب ، وهو يعتصر قبضته بكل قوته ، مستطردًا :

- سنسحقه سحقًا .

حدق (قدرى) فى وجهه لحظة ، فى غضب هادر ، قبل أن يهب من مكانه ، صائحًا :

- كيف تجرؤ على صفعى أيها الوغد الحقير ؟!

اتسعت عينا (إفرام) فى دهشة ، لم تلبث أن اشتعلت فى غضب ثائر ، وهو يهتف :

- هل جننت يا برميل الـ ...

قبل أن يتم عبارته ، وثب (قدرى) نحوه بغتة ،

وهوى على وجهه بصفعة عنيفة ، أودعها كل غضبه وسخطه وثورته ..

وكانت مفاجأة مذهلة ..

لقد تلقَّى (إفرام) الصفعة ، فاندفع جسده إلى الخلف فى عنف ، وارتطم بالحارس الخاص بالحجرة ، ليدفعه معه خلفًا ، ويصطدم الاثنان بالجدار ، ثم يسقطان أرضًا على نحو مضحك ..

وصرخ (إفرام) ، وهو يقفز واقفًا على قدميه ، ويده تندفع نحو المسدس الكبير ، المعلَّق تحت أبطه :

ـ أيها الـ .....

وقبل أن تبلغ يده مسدسه ، أو تكتمل عبارته ، انتزع (قدرى) شيئًا من ثيابه ، وهو يصرخ :

ـ اخرس .. إياك أن تكملها .

تجمَّدت يد (إفرام) فى موضعها ، واتسعت عيناه فى ذهول ، وهو يحدِّق فى القنبلة اليدوية ، التى يمسك بها (قدرى) ، فى حين انتفض الحارس ، وحاول أن يرفع فوهة مدفعه الآلى ، لولا أن صاح به (قدرى) :

ـ ألقه يا رجل .. ألقه وإلا نسفت المكان كله .

تردَّد الحارس لحظة ، وهو يحدِّق فى القنبلة بدوره ، فأشار إليه (إفرام) بيده ، هاتفًا :

ـ ألقه يا رجل .

ألقى الحارس مدفعه الآلى أرضًا فى سخط ، فى حين أشار (إفرام) بيده فى حرص ، وهو يقول :

ـ اهدأ يا سيِّد (قدرى) .. اهدأ .. كل شىء يمكن إصلاحه .. إننى أعتذر عن تلك الصفعة ، و ...

قاطعه (قدرى) فى صرامة :

ـ مسدسك .

ردَّد الإسرائيلى فى دهشة :

ـ مسدسى ؟!

أجابه فى حدة :

ـ نعم .. ألق مسدسك .. ألقه أو .....

هتف (إفرام) ، وهو يشير إليه :

ـ سأفعل .. سأفعل يا سيِّد (قدرى) .. فقط لا داعى لمزيد من التوتُّر .. اهدأ ، وسيسير كل شىء على ما يرام .

قالها ، ويده تمتدَّ إلى مسدسه فى حذر متوتر ، فقال (قدرى) فى صرامة :

ـ استخدم سبابتك وإبهامك فقط ، والتقط المسدس بمنتهى البطء والحرص ، وألقه أرضًا ، تحت قدميك تمامًا ، ثم ادفعه بقدمك نحوى .

ثم صرخ فجأة :

ـ هيًا .

سرى التوتر فى كل خلية من خلايا (إفرام) ، وهو يجذب مسدسه ، وينفذ كل ما أمره به (قدرى) ، الذى التمعت عيناه فى ظفر ، وهو يديرهما إلى الحارس ، قائلاً بلهجة آمرة :

ـ أحضر مقعدك ، ومائدة الطعام .

أسرع الرجل ينفذ الأمر ، فجلس (قدرى) على المقعد فى لهفة ، وتطلّع إلى الطعام فى شراهة شديدة ، فتمتم (إفرام) فى حذر :

ـ سيِّد (قدرى) .. اترك هذه القنبلة ، وأعدك أن .....

قاطعه (قدرى) فى صرامة :

ـ اخرس .

ثم أشار إلى ركن الحجرة البعيد ، مستطردًا فى حدة :

ـ خذ حارسك ، واجلسا هناك فى صمت ، حتى أنتهى من طعامى .

أطاعه الاثنان فى عصبية ، فى حين وضع هو القنبلة على المائدة فى حرص ، وانقضَّ على الطعام فى نهم وشراهة بلا حدود ، وراح يملأ معدته المتلهِّفة بكميات هائلة منه ، فى سرعة مدهشة ، اتسعت لها عيون الرجلين عن آخرها ، فازدرد (إفرام) لعابه فى صعوبة ، وقال فى عصبية :

ـ لو أننى فى موضعك ، لما أضعت الوقت فى تناول الطعام ، ولبادرت بالفرار من هنا على الفور .

أجابه (قدرى) فى سخرية :

ـ الفرار من هنا ؟! لست غبيًا لأسعى إلى هذا أيها الإسرائيلى ؛ فأنا أعلم جيِّدًا مدى ما تحيطون به المكان من قوة وحراسة ، وأدرك أننى ، فور خروجى من هذه الحجرة ، سأصبح تحت عيون آلات المراقبة فى الممرات ، وسيدرك الجميع ما يحدث ، وعندئذ لن أخرج من هنا حيًا ، حتى ولو كنت أمتلك كل قنابل العالم .

قالها ، والتقط زجاجة مياه غازية ضخمة ،

وراح يفرغها فى جوفه ، على نحو جعل الرجلين يتساءلان : أما زال هناك مكان للمزيد ؟!

وبينما ينتهى منها ، ازدرد (إفرام) لعابه فى صعوبة ، ليسأله :

ـ من هنا يعمل لحسابكم ؟!

هزّ (قدرى) كتفيه ، وهو يعيد الزجاجة إلى موضعها ، ويتراجع فى مقعده الصغير ، ليربت على كرشه فى ارتياح واستمتاع ، مجيبًا :

ـ على حدّ علمى ، لا أحد .

سأله فى حدة :

ـ من أين حصلت على هذه القنبلة إذن ؟!

أدار (قدرى) عينين عابثتين إلى القنبلة ، قائلاً بلهجة ساخرة :

ـ آه .. هذه ؟!

ثم أشار بإبهامه ، مستطردًا بضحكة كبيرة :

ـ من هنا .

ردّد (إفرام) فى حذر متوتّر :

ـ من هنا ؟!

قهقه (قدرى) ضاحكًا فى قوة ، وهو يلتقط القنبلة ، مجيبًا :

ـ نعم .. من هنا .. إنها تبدو جميلة للغاية .. لولا عيب واحد فيها .

ردّد (إفرام) فى عصبية أكثر :

ـ عيب ؟!

ألقاها (قدرى) نحوه بلا مبالاة ، قائلاً :

ـ بالتأكيد ، فهى هشة .. للغاية !

تراجع الحارس فى ذعر ، وهو يطلق شهقة قوية ، فى حين قفز (إفرام) من مكانه صارخًا :

ـ يا للشيطان !

وتحت قدميه تمامًا ، ارتطمت القنبلة بالأرض .. وتهشّمت فى عنف ..

ومع ضحكة (قدرى) الساخرة المجلجلة ، تعلّقت عينا الرجلين بكومة الحطام ، التى بدت أشبه بقطعة من الكريم المثلّج ، سقطت أرضًا ، بمختلف ألوانها ..

ومن أعماقهما ، تصاعد غضب هائل ..

غضب جعل (إفرام) يرفع عينين مشتعلتين إلى (قدرى) ، هاتفًا :

ـ أيها الـ .....

قاطعه (قدرى) ، قائلاً فى سخرية :

ـ على الأقل امتلأت معدتى بالطعام .

وانفجر يقهقه ضاحكًا أكثر وأكثر ، بكل استمتاع الدنيا ..

لقد أثبت لهم أن كل من يعمل فى المخابرات المصرية يمكنه خداعهم ..

وإلى أقصى حد ..

★ ★ ★

« ما الذى يحدث هنا بالضبط ؟! »

هتف رئيس الوزراء الإسرائيلى بالعبارة فى غضب ، وهو يستقبل مدير (الموساد) فى مكتبه ، فارتسمت ابتسامة هادئة على شفتى المدير ، وهو يتساءل :

ـ وما الذى يحدث ؟!

لوّح رئيس الوزراء الإسرائيلى بذراعه كلها فى الهواء ، على نحو سوقى فظ ، وهو يقول فى حدة شرسة :

ـ هناك إجراءات شديدة التعسُف ، تتمَ فى (تل أبيب) ، دون مبررُ واضح .. حظر تجوال ، وإغلاق المداخل والطرقات ، وتفتيش الجميع بلا استثناء ، وأشياء أخرى كثيرة كثيرة .. من فعل هذا بحق الشيطان ؟!

ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتى الرجل ، وهو يجيب :

ـ أنا واثق من أن السيِّد رئيس الوزراء لديه إجابة كاملة للسؤال .

هتف رئيس الوزراء :

ـ بالتأكيد .

ثم مال إلى الأمام ، مستطردًا فى غضب :

ـ إنه أحد رجالكم ..

وقلّب فى بضعة أوراق أمامه ، قبل أن يضيف فى حدةَ :

ـ رجل يُدعى (دافيد بلو) .. هل تعرفه ؟!

أجابه مدير الموساد ، وهو يبذل قصارى جهده ؛ للحفاظ على هدوئه :

ـ إننى أعرف كل رجالى جيِّدًا ، و(بلو) هذا أحد أفضلهم على الإطلاق .

قال الرجل فى عصبية :

ـ عظيم .. ترى هل تعلم أيضًا لماذا أصدر أحد أفضل رجالك أمرًا أحمقَ كهذا ؟!

ثم مال إلى الأمام ، مستطردًا فى حدة :

- وهل استشارك قبل إصداره ؟!

وتحوّلت حدته إلى ثورة عنيفة ، وهو يواصل صارخًا :

- إنك لا تدرى ماذا أصابنى ، منذ بدأت تلك الإجراءات السخيفة .. عشرات الشكاوى والاتصالات .. الهاتف يدقّ بلا انقطاع .. وزراء .. دبلوماسيون .. عسكريون .. رجال أعمال وسياسة ، وصحافة ، واللعنة على هذه الفئة الأخيرة .. إنهم مثل الفئران الصغيرة ، عندما يتسلّل واحد منها إلى منزلك ، تحتاج إلى حرب نووية لإخراجه منه .. الكل يتساءلون عما يحدث ، وليس لدى تفسير واحد أقدّمه لهم .. حتى الرئيس نفسه ، لم أملك لسؤاله جوابًا .

صمت مدير الموساد لحظة ، قبل أن يجيب فى حذر ، وهو يزن كل كلمة من كلماته بمنتهى الدقة :

- رجالى تلقوا تدريبات مدهشة يا سيادة رئيس الوزراء ، ولديهم خبرات عسكرية لا يتطرّق إليها الشك .

هبّ رئيس الوزراء من مقعده ، واحتقن وجهه بشدّة ، وهو يهتف :

- خبرات عسكرية ؟! ماذا تعنى يا رجل ؟! ما الذى تشير إليه .. إلام تلمّح بالضبط ؟! الخبرات العسكرية ليست ضرورة حتمية ، ليبدو المرء ناجحًا ومتفوقًا .

ابتسم مدير (الموساد) ، الذى يدرك جيدًا أنه ليست لرئيس الوزراء الإسرائيلى أدنى خبرات عسكرية ، خلال تاريخه الطويل ، قبل أن يحتلّ منصبه الحالى ، بعد تركه لمنصب مندوب (إسرائيل) فى الأمم المتحدة ، وقال محاولاً تهدئة الموقف :

- بالتأكيد يا سيادة رئيس الوزراء .. بالتأكيد ، ولكن فى عملهم فقط ، تبدو الخبرات العسكرية رصيدًا ممتازًا ، يدعو للتمييز .. فى طبيعة عملهم فقط .

مطّ رئيس الوزراء الإسرائيلي شفتيه ، وهو يعود إلى مقعده ، متمتمًا فى عصبية :

- نعم .. فى طبيعة عملهم فقط .

ثم استطرد ، مستعيدًا حدته :

- ولكن ما صلة خبراتهم العسكرية بما يحدث فى (تل أبيب) ؟!

أجابه مدير (الموساد) فى سرعة :

- ما أردت قوله ، هو أن خبراتهم العسكرية تؤهّلهم

لاتخاذ قرارات قوية ، فـى ظـروف خاصـة جـدًا .. قرارات قد لا تبدو طبيعية أو مألوفة ، إلا أنها تتناسب تمامًا مع طبيعة الموقف وملابساته .

قال رئيس الوزراء بوجه محتقن :

ـ أى موقف هذا ، الذى يحتِّم اتخاذ إجراء معقَّد كهذا ؟!

أجاب الرجل فى حزم صارم :

ـ جاسوس مصرى .

جذبت العبارة اهتمام رئيس الوزراء فى شدة ، فكرَّرها فى توتر :

ـ جاسوس مصرى ؟!

ثم عاد يهتف محتقنًا :

ـ وهل أشعلتم هذه الفضيحة ، من أجل جاسوس مصرى واحد ؟! واحد ؟! كيف يمكننى أن أشرح هذا لرئيس الجمهورية ؟! للسفير الأمريكى ؟! أو حتى لرجال الصحافة والإعلام ؟!

أجابه المدير فى صرامة :

ـ إنه جاسوس واحد بالفعل ، ولكنه ليس جاسوسًا عاديًا .. إنه واحد من أقوى رجال المخابرات فى العالم ..

بل هو بالفعل أكثرهم قوة وخطورة ، عبر التاريخ كله .

هتف رئيس الوزراء مبهوتًا :

ـ من هذا ؟! (جيمس بوند) ؟!

أطلَّت نظرة ازدراء من عينى مدير المخابرات ، وهو يتنهَّد ، قائلاً :

ـ (جيمس بوند) عميل بريطانى ، وليس مصريًا يا سيادة رئيس الوزراء ، وهو مجرَّد شخصية روائية ، ابتكرها رجل مخابرات بريطانى بحرى سابق(*) ، ولكن الشخص الذى نتحدَّث عنه حقيقى تمامًا ، وهو رجل مخابرات مصرى شهير ، يُدعى (أدهم صبرى) .

ردَّد رئيس الوزراء فى انبهار :

ـ (أدهم صبرى) .. يا للشيطان !

سأله مدير (الموساد) :

ـ آه .. هل تعرفه يا سيادة رئيس الوزراء ؟!

هزَّ رئيس الوزراء رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ لم أسمع اسمه قط .

قال مدير (الموساد) فى ضيق :

(*) (أيان فلمنج) .

ـ هذا واضح يا سيادة رئيس الوزراء .. واضح للغاية .

سأله الرجل فى عصبية :

ـ ماذا تعنى يا هذا ؟!

أجاب مدير (الموساد) فى سرعة :

ـ لأن أعمال المخابرات تعتمد على السرية البالغة بالطبع .

تراجع رئيس الوزراء ، متمتمًا :

ـ آه .. هكذا .

تابع مدير (الموساد) بنفس السرعة :

ـ المهم أن ذلك الجاسوس المصرى قد نجح فى دخول (تل أبيب) ، وبدأ يسخر من رجالنا فيها ، وكأنه يتعمَّد استفزازنا وإثبات فشلنا فى إلقاء القبض عليه ؛ لذا فقد كان من الضرورى أن نظفر به بأى ثمن ، وإلا أصبحت فضيحة .

زمجر رئيس الوزراء ، مغمغمًا :

ـ لقد أصبحت فضيحة بالفعل .

هزَّ مدير (الموساد) رأسه ، قائلاً :

ـ ليس بعد .. إنها الآن مجرَّد تساؤلات ليس إلا ،

وربما امتزجت بالغضب والثورة ، ولكنها ما زالت مجرَّد تساؤلات ، ستنتهى حتمًا عندما نلقى القبض على (أدهم صبرى) ، ونعلن ذلك عالميًا .

سأله رئيس الوزراء فى تحفز :

ـ وماذا لو لم تفلحوا فى إلقاء القبض عليه ؟!

انعقد حاجبا مدير (الموساد) فى ضيق ، وهو يقول :

ـ طبقًا لكل قواعد العقل والمنطق ، يفترض أن ينجح هذا الأسلوب المعقَّد فى الإيقاع به .

كرَّر رئيس الوزراء فى عناد وإصرار :

ـ فماذا لو فشل ؟!

أجابه فى حزم :

ـ عندئذ سيكون من حسن حظنا أن (دافيد بلو) لم يحاول استشارتنا ، قبل أن يصدر هذه الأوامر .

سأله رئيس الوزراء مبهوتًا :

ـ ماذا تعنى ؟!

غمز مدير (الموساد) بعينه ، قائلاً :

ـ الفشل سيثير غضب الجميع ، وسيدفع الصحافة إلى المطالبة بالكشف عن المسئول عن هذه المهزلة ، وسنضطر بالطبع إلى التضحية بأحد .

تألقت عينا رئيس الوزراء ، وامتلأ وجهه بابتسامة جذل ، وهو يقول :

ـ آه .. كبش فداء .. بالطبع .. أنا أفهم هذه اللعبة تمامًا .

وقهقه ضاحكًا ، قبل أن يضيف :

ـ هل تعتقد أن رجلك الأفضل (بلو) هذا ، سيبدو كبش فداء مناسبًا ، عندما نقدمه للصحافة والمسئولين ، على طبق من ذهب ؟!

هزَّ مدير (الموساد) كتفيه ، قائلاً فى خبث :

ـ لقد أصدر تلك الأوامر بالفعل .. أليس كذلك ؟!

واشترك الاثنان هذه المرة فى ضحكة طويلة ..

ضحكة تحمل كل الخبث والمكر والدهاء ..

السياسى ..

★ ★ ★

اندفع (دافيد بلو) ، فى توتر شديد ، إلى تلك الحجرة ، التى يرقد فيها (مائير جولدمان) ، فى قسم الطوارئ ، فى المستشفى الصغير التابع لجهاز (الموساد) ، فى قلب (تل أبيب) ، وهتف فى أحد الرجال ، الذين أحاطوا بالفراش :

ـ ماذا أصاب أدون (جولدمان) ؟!

أجابه أحد رجال (الموساد) فى عصبية :

ـ لقد عامله (أدهم صبرى) بعنف شديد ، حتى إنه حطَّم أنفه ، وأصاب فكه بكدمة كبيرة .

ألقى (دافيد) نظرة على ما أصاب (جولدمان) ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ ما الأمر الذى لن يمكننى تصديقه إذن ؟!

أجابه رجل آخر :

ـ لقد عثرنا على أدون (جولدمان) فاقد الوعى ، داخل سيارته الخاصة ، فى شارع ضيق ، يبعد عن مقرنا الرئيسى عشرين مترًا فحسب .

هتف (دافيد) فى حنق :

ـ يا للجرأة ! (أدهم صبرى) يثبت لنا أنه لا يخشانا .

تبادل الرجال نظرة متوترة ، قبل أن يقول أحدهم :

ـ (أدهم صبرى) نفسه هو الذى أبلغنا ، أننا سنعثر عليه هناك يا أدون (بلو) .

اتسعت عينا (دافيد) عن آخرهما ، حتى كادا يقفزان من محجريهما ، وهو يهتف بكل غضب واستنكار الدنيا :

- من ؟!

تبادل الرجال نظرة أخرى ، قبل أن يجيب أحدهم :

- (أدهم صبرى) بنفسه يا أدون (بلو) .. لقد اتصل بنا ، على رقم هاتف سرى للغاية ، وأبلغنا فى سخرية بالغة ، أننا سنجد رئيسنا فى ذلك الشارع الجانبى .

احتقن وجه (دافيد) فى شدة ، وهو يقول :

- ما الذى يفعله بنا هذا الرجل ؟! ما الذى يسعى إليه ؟! هل أتى إلى أرضنا ليسخر منا فحسب ؟!

غمغم أحدهم متوترًا :

- لقد أتى لإنقاذ رفيقه .

صاح (دافيد) :

- متى ؟! إنه لم يسع لهذا قط ، منذ وطأ (تل أبيب) .. لم يقترب من البيت الكبير قط .. لم يبذل محاولة واحدة لإنقاذ صاحب الأصابع الذهبية ، الملقى فى حجرته هناك .

قال أحدهم فى حذر :

- ربما لا يعرف أنه هناك .

استدار إليه بحركة حادة ، هاتفًا :

- لا يعرف ماذا ؟!

تراجع الرجل فى توتر ، فى حين استمرّ هو فى غضبه ، صائحًا :

- إننا لا نتحدَّث عن أحدكم أيها الأغبياء ، بل عن (أدهم صبرى) .. عن أقوى وأبرع رجل مخابرات فى العالم .. هذا ما ينبغى أن نعلمه وندركه أولاً ، حتى يمكننا أن ننجح فى مواجهته .. لا بد أن تعلموا جميعًا أنه ليس مجرَّد رجل عادى ، وأنه يعلم حتمًا أين زميله الأسير .

قال أحدهم فى تردُّد شديد :

- لماذا لم يسع لإنقاذه إذن ؟!

أجابه (دافيد) فى توتر :

- ربما هذا ما يفعله .

هتف آخر :

- كيف ؟!

انعقد حاجبا (دافيد) فى شدة ، وهو يشير بسبابته ، قائلاً :

ـ هذا ما ينبغى أن نبحث عنه .

وراح يتحرك فى الحجرة شاردًا ، ومتابعًا :

ـ أن نتساءل : لماذا يفعل كل هذا ؟! وما هدفه بالضبط ؟! ما الذى يسعى إليه ؟! ما هدفه الحقيقى من كل هذا العبث ؟!

ارتفعت فى تلك اللحظة همهمة (جولدمان) ، وهو يستعيد وعيه :

ـ أين أنا ؟! ماذا حدث ؟!

استدار إليه (دافيد) فى سرعة ، وهتف :

ـ أدون (جولدمان) .. حمدًا لله على سلامتك .. ما الذى فعله بك ذلك الشيطان ؟!

لوّح (جولدمان) بذراعيه ، وهو يعتدل ، قائلاً :

ـ اللعنة ! لا تذكرنى بهذا يا (دافيد) .. إننى أتمنى العثور عليه الآن ، لأنسف كيانه نسفًا .

ثم التفت إليه ، متسائلاً فى حدة :

ـ قل لى : هل أوقعتم به ؟!

انعقد حاجبا (دافيد) فى شدة ، وهو يقول :

ـ لقد أصبحت مسألة وقت .

هتف (جولدمان) فى حدة :

ـ مسألة وقت .. مسألة وقت .. لقد أصبحت أبغض هذه الحجة السخيفة .

ثم اعتدل جالسًا ، وهو يهتف :

ـ احضروا ثيابى .. أريد أن أذهب إلى البيت الكبير على الفور .

هتف (دافيد) فى دهشة :

ـ البيت الكبير ؟! ولكنك لم تستعد عافيتك بعد يا أدون (جولدمان) .

لوّح (جولدمان) بيده فى حدة ، ثم التقط ثيابه ، التى ناوله إياها أحد رجاله ، وراح يرتديها على عجل ، قائلاً :

ـ عندما ينتهى الأمر ، سيكون لدينا الكثير من الوقت للراحة .. المهم الآن أن نوقع بذلك الشيطان المصرى .

تردّد (دافيد) لحظة ، قبل أن يقول :

ـ ربما لا يحتاج الأمر إلى جهدك يا أدون

(جولدمان) ، فمنذ ما يقرب من الساعة ، بدأت عملية تمشيط دقيقة لمدينة (تل أبيب) ، طبقًا لخطة الطوارئ القصوى (أ) ، التى ناقشنا احتمالات استخدامها ، فى أحد اجتماعاتنا السابقة ، وأنت تعلم أنها ، على الرغم من صعوبتها وتعقيداتها ، محكمة إلى أقصى حد ، بحيث لا يمكن أن يفلت منها أحد قط .

أجابه (جولدمان) ، وهو يعقد رباط عنقه :

ـ لا توجد خطة أمنية تامة الإحكام .. هناك حتمًا ثغرة ما ، سيتوصَّل إليها ذلك الشيطان حتمًا ، وعندئذ .....

ثم بتر عبارته بغتة ، والتفت إليه بحركة حادة ، هاتفًا :

ـ خطة الطوارئ القصوى (أ) ؟! هل قلت : إنك قد استخدمت خطة الطوارئ القصوى (أ) ؟!

أجاب (دافيد) فى حذر وتوتر شديدين :

ـ لقد تم استخدامها بالفعل ، و .....

قاطعه (جولدمان) ، وهو يهتف مستنكرًا :

ـ خطة الطوارئ القصوى (أ) ؟!

امتقع وجه (دافيد) ، وغمغم فى ارتباك ، وهو يتساءل فى أعماقه : هل يصارح (جولدمان) بالأمر الآن ، أم يلجأ إلى خطة الإنكار ، وإلقاء التبعية على (أدهم صبرى) ، التى ابتكرتها زوجته (ليليان) ؟! أم أنه من الأفضل أن .....

قبل أن يتمّ عبارته ، انطلق رنين الهاتف ، المجاور لفراش (جولدمان) ، فأسرع (دافيد) يلتقط سمّاعته بنفسه ، كمحاولة للفرار من المناقشة ، وقال فى آلية :

ـ (دافيد بلو) ..

رمقه (جولدمان) بنظرة غاضبة ، وهو يرتدى سترته ، قائلاً :

ـ خطة الطوارئ القصوى (أ) .. هه .. إنك ستثير بهذا حفيظة كل أصحاب الياقات السوداء فى (القدس) و(تل أبيب)(*) .

(*) أصحاب الياقات السوداء : مصطلح يطلق فى بعض الأحيان ، على الساسة والقادة ، أو كبار رجال الأعمال ؛ لأن تلك الفئات ، فى القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، كانت ترتدى سترات لها ياقات سوداء عالية .



تجمَّدت يد (جولدمان) فى موضعها ، والتفت إليه ، قائلا فى دهشة :
ـ (دافيد) .. هل جننت ؟! ..

رفع (دافيد) عينيه إليه بحركة حادة ، واحتقن وجهه فى شدَة ، على نحو أصاب الرجال بالقلق ، فغمغم أحدهم :

ـ ربما نجحت خطة الطوارئ القصوى فى .....

كان (جولدمان) يمدّ يده فى تلك اللحظة ، ليلتقط مسدسه ، الذى أحضره الرجال من قاع سيارته ، و .....

وفجأة ، بتر (دافيد) عبارته ، وهو يلقى سمَّاعة الهاتف جانبًا ، ويستلّ مسدسه ، صائحًا فى صرامة عصبيةَ :

ـ إياك أن تلمسه .

تجمَّدت يد (جولدمان) فى موضعها ، والتفت إليه ، قائلاً فى دهشة :

ـ (دافيد) .. هل جننت ؟!

صاح به (دافيد) فى حدة :

ـ سأجن فعلاً ، لو اقتربت خطوة أخرى من هذا المسدس .. إننى أحذرك .. سأطلق النار بلا إنذار آخر .

أبعد (جولدمان) يده عن المسدس ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ماذا دهاك يا (دافيد) ؟! أهو انهيار عصبى أم ماذا ؟!

أجابه (دافيد) فى سخرية عصبية :

ـ بل هو ضوء الحقيقة ، كما يسمّونه فى المقالات الأدبية ، والروايات البوليسية الأنيقة ، الضوء الذى كشف أمرك الآن .

ردَّد (جولدمان) فى حذر :

ـ كشف أمرى .

صاح به (دافيد) :

ـ بالتأكيد .. أتعلم من كان المتحدث الآن ..

سأله (جولدمان) فى حذر أكبر :

ـ من ؟!

أجابه (دافيد) بعينين مشتعلتين انفعالاً :

ـ (مائير جولدمان) الحقيقى .

ثم وثب نحو (جولدمان) ، وجذب شعره الأبيض بكل قوته ، صائحًا :

ـ يا سيِّد (أدهم) .

وكانت مفاجأة للجميع !

مفاجأة مذهلة .

★ ★ ★

٤ ـ الخطة (أ) ..

سرى توتر لا محدود ، فى كيان (راشيل فريمان) ، وهى تحمل مدفعها الآلى القصير ، وتتحرَّك وسط قوات الطوارئ ، ضمن الخطة (أ) ، هاتفة فى رجالها :

ـ لا استثناءات .. تذكَّروا هذا جيِّدًا .. الجميع يتم فحص أوراقهم بمنتهى الدقة .. ألقوا القبض على كل من يرفض أو يقاوم .

كانت تلقى أوامرها ، وقلبها ينتفض بين ضلوعها فى قوة ، وعقلها يطرح عشرات التساؤلات ، التى ترتجف لها كل خلية فى كيانها كله ..

تُرى ما الذى فعله (أدهم) ، ليثير جنونهم إلى هذا الحد ؟!

كيف دفعهم إلى اتخاذ إجراءات لم يسبق لها مثيل ، فى تاريخ (إسرائيل) كله ؟!

وأين هو الآن ؟!

أين يختفى ؟!
أين ؟!
هل يمكن أن ينجو من هذا الحصار الرهيب ؟!
هل ؟!
ومن أعماقها ، تصاعدت موجة عارمة من القلق ، تمتزج بالكثير من الرهبة والإعجاب ، وهى تستعيد كل ما فعله (أدهم) ..
وعلى الرغم من عنادها ومكابرتها ، تمنت لو أنها قابلته ثانية ، أو التقت به ، ولو لحظة واحدة ، ثم .....
انتفض جسدها فى عنف ، عندما جال هذا الأمر بخاطرها ، ووجدت نفسها تهتف فى عصبية زائدة :
- افحصوا أوراق الجميع .. بلا استثناء .
كانت تتحرك فى سرعة ونشاط ، وتراقب الجميع ، وكأنها تتمنى أن تعثر عليه قبلهم ، حتى يمكنها إنقاذه ، من هذا الفخ المحكم ..
ولكن شيئًا ما فى أعماقها جعلها تصر على أنه لن يقع أبدًا بهذه السهولة ..
لا يمكن أن يسقط مثله فى فخ كهذا ..

مستحيل !
مستحيل !
ثم فجأة ، وثبت إلى رأسها فكرة جديدة ..
ترى أين (أديب الريس) الآن ؟!
من المؤكد أنه ما زال حيث تركته ، فى مصنع (كوهين) ، فى (يافا) ..
إذن فمن الممكن أن ينتحل (أدهم) شخصيته هنا .. فى (تل أبيب) ..
من سيشك فى أمره عندئذ ؟!
إنها تعلم جيدًا أن (أديب) شخصية معروفة ، فى المنطقة كلها ، على الرغم من أنه عربى فلسطينى ..
ربما يثير دهشتهم قليلاً ، عندما يروه فى (تل أبيب) ، فى هذه الساعة المبكرة ، وهو الذى اعتاد العودة من (يافا) فى نهاية الليل ، مخمورًا عابثًا !
ولكن هذا لن يدفعهم إلى الشك فى أمره ..
بالتأكيد ..
(أديب) هو أفضل شخصية ، يمكن أن ينتحلها (أدهم) ..
اطمأن عقلها إلى ذلك التفسير ، فاندفعت نحو

سيارتها (الجيب) ، ووثبت داخلها ، وانطلقت بها نحو المنطقة ، التى يقيم فيها (أديب) ، وقلبها يخفق فى عنف ، كما لو أنها فى طريقها للقاء حبيب أو محبَ عاشق ..

ولأنها قد أدركت هذا الأمر على الفور ، فقد غمغمت :

ـ ماذا دهاك يا (راشيل) ؟! لقد تجاوزت الثلاثين بعدة أشهر ، ولا يمكن أن تتصرفى اليوم كالمراهقات .. هيا .. تماسكى .. إنه مجرد رجل مخابرات مغرور ومتكبر ، كما كنت تقولين دائمًا ، فلماذا يخفق قلبك فى لهفة لرؤيته على هذا النحو ؟!

أطلقت ضحكة عابثة ، قبل أن تضيف :

ـ ولمَ لا ؟! عيشى اليوم مراهقتك ، التى أفلتت منك فى حينها .. دعى قلبك يخفق ، ولو مرة واحدة ، فى عمرك كله .. اجعليه يشعر بأنه ما زال حيًا خفاقًا .. ما زال ينبض بشىء آخر ، بخلاف الخوف والقلق ، اللذين تتعايشين معهما ، منذ وصلت إلى هنا .

ورفعت أحد حاجبيها وخفضته ، متابعة :

ـ ثم إنه يستحق .

قالتها ، وأطلقت ضحكة قصيرة ، وضغطت دواسة الوقود أكثر وأكثر ، وعقلها يقفز مرة أخرى إلى السؤال القديم ..

ترى هل يمكن أن ينجو (أدهم) ، من هذا الحصار الرهيب ؟!

هل ؟!

★ ★ ★

« لا يمكننى أن أتخيل ما يحدث هناك الآن .. »

نطق الحاج (فادى) العبارة ، وهو يقهقه ضاحكًا فى استمتاع ، قبل أن يعتدل فى مجلسه ، مضيفًا :

ـ أراهن على أنك ستثير جنونهم إلى أقصى حد .

ابتسم (أدهم) فى هدوء ، وقال وهو يولى تنكره عناية فائقة :

ـ هذا هو الهدف بالضبط يا رجل .. أن أثير جنونهم .

هز الحاج (فادى) رأسه ، وقال :

ـ لست أدرى الهدف من هذا بالضبط ، وأعلم أنه ليس من حقى أن أسأل ، على الرغم من أن كل قواعد العقل والمنطق تحتم حدوث العكس ، فعندما

تكون فى وكر خصمك ، لا ينبغى أن تثير غضبه ونقمته عليك أكثر وأكثر .

قال (أدهم) فى هدوء :

- هذا بالضبط ما يمليه المنطق السليم .

ثم ابتسم فى سخرية ، مستطردًا :

- ولهذا فما أفعله يثير جنونهم إلى أقصى حد .

قهقه الحاج (فادى) ضاحكًا مرة أخرى ، وهو يقول :

- هل ستخبرنى ؟!

ثم أشار بيده ، مستطردًا :

- أسلوبك معهم مستفز إلى أقصى حد .. لقد اختطفت رئيس قسم العمليات الخاصة فى (الموساد) ، من وسط كل رجاله ، وفرقة كوماندوز خاصة ، ثم أفقدته الوعى ، وألقيته داخل سيارته ، واتصلت تخبرهم بذلك ، على نحو أثار جنونهم وحفيظتهم ، خاصة وأنك قد استخدمت رقم هاتف ، يتصوَّرون جميعًا أنه سرّى للغاية ، ولا أحد يعلمه سواهم .. وعندما نقلوا الرجل إلى مستشفاهم الخاص ، وذهب (دافيد) لرؤيته ، فاجأتهم باتصال عاجل ، ادعيت

خلاله أنك (جولدمان) الحقيقى ، وأن الذى بين أيديهم هو أنت متنكرًا .

ولم يستطع منع نفسه من إطلاق ضحكة أخرى ، قبل أن يتابع :

- أراهن على أنهم انقضوا على الرجل كالوحوش ، وهم يتصوَّرون أنهم يلقون القبض عليك أنت !

ابتسم (أدهم) فى هدوء ، وهو يقول :

- سيكشفون الحقيقة بسرعة ، عندما يتضح لهم أن ملامحه حقيقية ، بلا أية إضافات .

قهقه الحاج (فادى) ، قائلاً :

- هذا صحيح ، ولكن بعد أن يتضاعف جنونهم منك ألف مرة .

أجابه (أدهم) فى اقتضاب :

- بالتأكيد .

تطلَّع إليه الحاج (فادى) ، فى مزيد من الإعجاب والانبهار ، قبل أن يميل إلى الأمام ، دون ضرورة حقيقية لهذا ، ويسأله فى اهتمام :

- أخبرنى بحق يا سيِّد (أدهم) .. لماذا تفعل بهم هذا ؟!

التفت إليه (أدهم) بوجهه الجديد ، قائلاً :

ـ إننى أطبق القاعدة العامة فحسب .

غمغم الرجل :

ـ القاعدة العامة ؟! أية قاعدة ؟!

أشار (أدهم) بيده ، مجيبًا :

ـ قاعدة ارتباط العقل بالأعصاب والغضب .. القاعدة التى تقول إنه كلما خاف الشخص أو غضب ، قلّ ارتباطه بالعقل والحكمة .. إننى أثير جنونهم بلا حدود ، وهذا يجعلهم يتصرفون بعصبية وانفعال ، وعلى نحو يتعارض مع كل ما تقتضيه الحكمة ويحتمه العقل والمنطق .

ونهض من مقعده ، واتجه إلى النافذة ، متابعًا :

ـ انظر لما يفعلونه الآن .. لقد أعلنوا حالة الطوارئ القصوى (أ) ؛ لمجرَّد أنهم يرغبون فى الإيقاع بى .. انظر إلى أى مدى ذهبوا ، لمجرَّد أننى قد أثرت غضبهم وحنقهم .. سل نفسك إذن ، ما الذى يمكن أن يحدث ، لو ضاعفت هذا الغضب مرتين على الأقل ؟! إنهم عندئذ سيتجاوزون دائرة المنطق إلى التصرفات الجنونية الحقيقية .

سأله فى اهتمام :

ـ وماذا سيحدث عندئذ ؟!

صمت (أدهم) بضع لحظات ، قبل أن يقول فى هدوء :

ـ سينتصر الهدوء والعقل والحكمة .

لم يفهم الحاج (فادى) شيئًا من الجواب ، فتطلع إليه فى حيرة ، وهمّ بإلقاء سؤال آخر ، لولا أن اعتدل (أدهم) ، وشدّ قامته ، قائلاً فى حزم :

ـ حان وقت العمل .

نهض الحاج (فادى) ، وهو يقول :

ـ فليكن يا ولدى ، وفقك الله (سبحانه وتعالى) .

ابتسم (أدهم) فى هدوء عجيب ، ثم غادر المنزل بخطوات واثقة وقامة مشدودة ..

وعلى الرغم من التوتر والاضطراب ، اللذين سادا شوارع (تل أبيب) ، بسبب حملة التفتيش ، وتوابع الخطة (أ) ، سار (أدهم) فى هدوء عجيب ، وهو يحمل على شفتيه ابتسامة كبيرة هادئة واثقة ، و ...

« أنت هناك .. »

ارتفع الهتاف الصارم ، ممتزجًا بصرير إطارات

(جيب) عسكرية ، تتوقف على قيد متر واحد خلفه ، فتوقف بدوره ، وصاحب الهتاف يقفز من السيارة العسكرية ، ممسكًا مدفعه الآلى ، ومتابعًا فى غلظة :

- إبرز أوراقك .

استدار إليه (أدهم) فى هدوء ، وهو يقول :

- أوراقى ؟! هل تحتاج إلى رؤية أوراقى بحق أيها الضابط .

واتسعت عيون الجميع فى دهشة بلا حدود ..

وانتفضت أجسادهم فى عنف ..

فذلك الذى يرونه أمامهم ، كان آخر شخص يتوقعون رؤيته ، فى مثل هذه الظروف ..

آخر شخص على الإطلاق ..

★ ★ ★

« أحمق .. »

هتف (جولدمان) بالكلمة فى غضب هادر ، وهو ينطلق بسيارته ، متجاوزًا أحد الحواجز الأمنية ، فى طرقات (تل أبيب) ، فانكمش (دافيد) فى مقعده ، وهو يتمتم :

- صدقنى يا أدون (جولدمان) .. لقد كان ذلك الشيطان مقنعًا ، حتى أننى لم .....

قاطعه (جولدمان) فى غضب :

- مهما حدث ، ما كان ينبغى أن تفقد عقلك أبدًا .. إنك تسير بالضبط حيثما يدفعك هو ، وهنا يكمن الخطأ .. أكبر خطأ .. إنك بهذا تؤمن له خطة متقنة ، يسعى لتنفيذها منذ البداية .

سأله (دافيد) فى توتر :

- أية خطة ؟!

انعقد حاجبا (جولدمان) فى شدة ، وهو يجيب :

- لست أدرى .

ثم استدرك فى عصبية زائدة :

- ولكن هناك خطة ما حتمًا .. إنه لا يعبث فحسب .. ليست هذه طبيعته .

ضم (دافيد) قبضته فى شدة ، وهو يقول فى غضب :

- إننى أعتصر ذهنى طوال الوقت ، فى محاولة لمعرفة ما يسعى إليه ، ولكن .....

قاطعه (جولدمان) فى حزم ، وهو ينحرف نحو البيت الكبير ، ملقيًا نظرة على ساعته :

- عقل واحد لا يكفى .. هذه هى القاعدة الذهبية

لعملنا يا رجل .. الأكثر دقة أن نعقد اجتماعًا لمناقشة الأمر كالمعتاد .. كل يدلى برأيه ، ثم نتخذ قرارًا جماعيًا فى النهاية .

ثم توقف أمام بوابة البيت الكبير ، وأشار لطاقم الحراسة بيده ، قائلا :

ـ (سالومى) .

ابتسم قائد طاقم الحراسة ، وهو يضغط زر البوابة ، قائلا :

ـ مرحبًا يا أدون (جولدمان) .

ارتفع حاجبا (دافيد) فى دهشة ، عندما انفتحت البوابة ، وعبرتها سيارة (جولدمان) دون فحص أو تفتيش ، ثم لم تلبث دهشته أن تحولت إلى غضب شديد ، وهو يقول فى حدة :

ـ وماذا عن إجراءات الطوارئ القصوى ؟!

أجابه (جولدمان) فى صرامة :

ـ كل شىء يسير وفقًا لتلك الإجراءات .

قال (دافيد) فى عصبية :

ـ وماذا لو أن (أدهم صبرى) هو الذى يقود هذه السيارة ، منتحلاً شخصيتك ؟! ألم يكن هذا سيعنى أنه الآن داخل البيت الكبير بالفعل ؟!

أوقف (جولدمان) سيارته أمام المبنى ، قائلا :

ـ لو أن (أدهم صبرى) هو الذى يقود هذه السيارة ، منتحلاً شخصيتى ، لنسفه الرجال نسفًا ، قبل أن يتجاوز أسوار المبنى .

قال (دافيد) ، وهو يغادر السيارة :

ـ بأية حجة ؟!

أجابه (جولدمان) فى حزم :

ـ بحجة أنه لم يستخدم كلمة السر ، التى يتم تغييرها كل ساعتين ، بترتيب عشوائى محض ، يستحيل التوصل إليه مصادفة .

سأله (دافيد) فى دهشة :

ـ ومتى تم استخدام هذا الأسلوب ؟!

أجابه (جولدمان) ، وهو يتجه نحو المبنى :

ـ منذ البداية .

ثم أضاف فى صرامة :

ـ ولكنه يقتصر على القادة .

مط (دافيد) شفتيه فى ضيق ، وهو يقول :

ـ كيف عرفت كلمة السر الجديدة إذن ، ما دامت تتغير كل ساعتين بترتيب عشوائى محض ، وأنت لم تأت إلى هنا ، منذ أكثر من ساعتين .

أشار (جولدمان) إلى ساعته ، وهو يغمز بعينه ، قائلاً :

ـ إننى أتلقَى إشارة خاصة .

حدَق (دافيد) فى ساعة (جولدمان) ، التى بدت له عادية تقليدية ، على الرغم من طرازها الفاخر ، ثم لم يلبث أن هزَ رأسه ، متمتمًا :

ـ لست أفهم شيئًا .

ابتسم (جولدمان) ابتسامة واسعة ، وهو يقول :

ـ هذا هو المطلوب .

قالها ، وهو يدلف إلى حجرته فى خفة ، فلحق به (دافيد) ، قائلاً فى شىء من العصبية :

ـ فكرة عبقرية ، على الرغم من بساطتها .. لماذا لم يتمَ تعميمها ، بالنسبة لكل العاملين هنا ؟!

أجابه (جولدمان) فى صرامة ، وهو يتجه إلى خريطة (تل أبيب) :

ـ كان هذا كفيلاً بكشف الخدعة وإفساد الأمر كله .

وراجع الخريطة ببصره فى سرعة ، مستطردًا :

ـ تمامًا مثلما فعلت بتلك الحماقة ، التى أشعلت بها (تل أبيب) كلها .

ازدرد (دافيد) لعابه ، قائلا :

ـ قلت لك اطمئن يا أدون (جولدمان) .. لقد اتخذت من الإجراءات ما يكفل لنا التنصُل من الأمر كله ، وإلقاء تبعيته على (أدهم صبرى) نفسه ، إذا ما تعقَدت الأمور .

التفت إليه فى حدة ، وهو يقول :

ـ تصرف طفولى أكثر سخافة ، فلا يوجد دافع منطقى واحد ، لأن يضيَق (أدهم صبرى) الخناق على نفسه بنفسه هكذا .

أجابه فى سرعة :

ـ المبرَر منطقى وموجود يا أدون (جولدمان) .. إنها وسيلة جديدة لإثارة غضبنا ، ولدفع الارتباك إلى أعمق أعماقنا ، بحيث نحار فيما يستهدفه بالضبط .. أليس هذا ما يفعله منذ البداية ؟!

قال (جولدمان) فى حدة :

ـ هذا صحيح ، ولكن ليس بشكل مطلق ، ثم إن القيادة السياسية ، التى ستثير هذه التصرفات غضبها ، لا يمكنها الاقتناع بمنطقنا هذا ، وبخاصة رئيس الوزراء ، الذى لا يمتلك أية خبرات سياسية أو

عسكرية سابقة ، ويصر فى الوقت ذاته على التصرف بمنتهى الحدة والعنف والصرامة ، كخبير الخبراء .

لم يكد ينتهى من عبارته ، حتى اندفع أحد رجاله إلى مكتبه ، هاتفًا :

ـ هل تتابعان التلفاز ؟! هناك بث مباشر ، من قلب شوارع (تل أبيب) ، خلال تنفيذ الخطة (أ) .

استدار (جولدمان) إلى (دافيد) ، صائحًا فى غضب :

ـ أرأيت ما فعلته الـ .....

قاطعه الرجل فى انفعال :

ـ الأمر لا يتعلق بالخطة (أ) وتنفيذها .. إنه لقاء خاص .

هتف (جولدمان) ، فى نفس الوقت ، الذى اندفع فيه (دافيد) نحو التلفاز :

ـ لقاء مع من ؟!

أجابه الرجل بأنفاس مبهورة :

ـ رئيس الوزراء ..

هتف (دافيد) و(جولدمان) ، فى آن واحد :

ـ من ؟!

لم يكن هتافهما قد انطلق بأكمله بعد ، عندما نقلت إليهما شاشة التلفاز صورة رئيس الوزراء الإسرائيلى ، بملامحه السمجة وشعره الأبيض ، وهو يقف وسط أحد شوارع (تل أبيب) ، واضعًا أحد كفيه فى جيب سرواله ، وملوحًا بيده الأخرى فى حدة ، هاتفًا أمام مذيعة التلفاز الإسرائيلى :

ـ أنا نفسى أجهل ما يحدث هنا .. رجال (الموساد) وحدهم قد يفهمون لماذا كل هذه الإجراءات التعسفية المعقدة .. لقد نزلت إلى الشوارع بنفسى ، دون حراسة أو إجراءات مسبقة ؛ لأتابع شخصيًا ما يتعرض له المواطن الإسرائيلى البسيط ، من تعنتات رجال التفتيش والمتابعة .

سألته المذيعة فى اهتمام :

ـ ألا يحتمل أن يكون هذا بسبب هجمة أخرى ، من هجمات المخربين العرب ، خاصة وأننا قد سمعنا بعض الانفجارات فى الصباح ؟!

أجابها فى حماس :

ـ كل شىء محتمل ، فالأعصاب الفلسطينية مشدودة للغاية ، بسبب تشددنا فى الآونة الأخيرة ، ويبدو أنه لا مفرّ من الاعتراف بقيام دولة فلسطينية .

لم يكن هتافهما قد انطلق بأكمله بعد ، عندما نقلت إليهما شاشة التلفاز صورة رئيس الوزراء الإسرائيلى ، بملامحه السمجة وشعره الأبيض ..

هتف (دافيد) مستنكرًا :

- يا للشيطان ! هل جنّ الرجل ؟! إن ما يقوله يخالف سياسته تمامًا .. بل يخالف كل السياسات الإسرائيلية المعلنة ، وغير المعلنة .

انعقد حاجبا (جولدمان) فى شدة ، وهو يتابع اللقاء ، فى حين هتف الرجل الآخر ، فى دهشة بالغة :

- ولكن متى عاد رئيس الوزراء من (القدس) ؟! أليس من المفترض أنه الآن فى .....

قاطعه (جولدمان) ، وهو يزمجر فجأة ، قائلاً :

- هذا الرجل ليس رئيس الوزراء .

التفت إليه (دافيد) وزميله فى دهشة عصبية ، فلوّح بسبّابته فى شاشة التلفاز ، صائحًا :

- إنه هو .

انتفض (دافيد) فى عنف ، واستدار يحدّق فى شاشة التلفاز فى ذهول مغمغمًا :

- هو ؟!

ارتفع رنين الهاتف فى تلك اللحظة ، فاختطف (جولدمان) سمّاعته فى لهفة ، ولم يكد يضعها على أذنه ، حتى اخترقتها صرخة غاضبة :

ـ أية مهزلة تلك ، التى تحدث عندكم ؟!

وعندئذ لم يعد لديه مقدار ذرة من الشك ..

هذا لأن صاحب تلك الصرخة الغاضبة ، كان هو نفسه ، الذى يفترض وجوده فى قلب شوارع (تل أبيب) ، فى اللحظة ذاتها ..

كان رئيس الوزراء الإسرائيلى ..

الحقيقى ..

★ ★ ★

لهث الفلسطينى (غسَّان) فى شدة ، من فرط الانفعال ، وهو يدلف إلى أحد متاجر القماش العربية ، فى قلب (تل أبيب) ، ويهتف بصاحبه الشاب :

ـ (سمير) .. أين المسدس الآلى ؟! إلىَّ به بسرعة يا رجل .

حدَّق (سمير) فى وجهه بدهشة عارمة ، قبل أن يسارع بإغلاق باب المتجر ، هاتفًا فى انزعاج شديد :

ـ ماذا دهاك يا رجل ؟! هل جننت ؟! أى مسدس هذا الذى تطلبه ، فى جحيم مشتعل كالذى يحيط بنا ؟!

قال (غسَّان) فى انفعال أكثر ، وهو يندفع نحو أحد بنوك الأقمشة :

ـ إنها فرصة نادرة ، لا ينبغى أن تضيعها أبدًا .

هتف به (سمير) ، وهو يعترض طريقه :

ـ فرصة لماذا ؟!

استدار إليه (غسَّان) فى شراسة ، وهو يقول :

ـ إنه هنا .

سأله (سمير) مضطربًا :

ـ من هو ؟!

أجابه فى سرعة ، وهو يزيحه عن الطريق :

ـ رئيس الوزراء الإسرائيلى .. إنه هنا ، فى قلب المعمعة ، بلا سلاح أو حراسة .

اتسعت عينا (سمير) عن آخرهما ، وهو يردِّد بدهشة بالغة :

ـ هو بنفسه .. هنا .

ثم وثب يسبق (غسَّان) إلى بنك الأقمشة ، ودفع الأثواب فى حدة ، دون أن يبالى بسقوطها أرضًا ، واختطف من خلفها مسدسًا آليًا ، ناوله لـ (غسَّان) ، ثم آخر دسَّه فى حزامه ، وهو يقول فى حزم :

ـ هيَا بنا .

غادرا المتجر معًا ، دون أن يبالى (سمير) بإغلاقه

خلفهما ، وانطلقا يسيران فى شوارع (تل أبيب) فى سرعة ، متحاشين الركض ، حتى لا يلفتا إليهما انتباه الجنود الإسرائيليين ، الذين اكتظت بهم الطرقات ، و(سمير) يقول لاهثًا :

ـ وتقول : إنه بلا سلاح أو حراسة .. إننى على العكس يا رجل ، أشعر وكأنهم قد نقلوا الجيش الإسرائيلى كله إلى هنا .

أجابه (غسان) ، وهو يلهث بدوره :

ـ يقولون : إنهم يبحثون عن جاسوس .

هتف (سمير) فى دهشة :

ـ جاسوس واحد ؟! هل يفعلون كل هذا ، من أجل جاسوس واحد ؟! إننى أعمل فى متجر أبى منذ كنت صبيًا صغيرًا ، ولم أشاهدهم يفعلون هذا قط ، حتى أيام حرب أكتوبر ١٩٧٣م

أجابه (غسان) ، وهو يتحسس مسدسه فى توتر :

ـ من الواضح أنهم يعتبرونه جاسوسًا بالغ الخطورة ، إلى الحد الذى يستحق معه كل هذا .

ثم توقف فجأة ، وهو يضيف بأنفاس مبهورة :

ـ ها هو ذا .

قالها ، وهو يشير إلى (أدهم) ، الذى أحاط به عدد من الجنود الإسرائيليين ، فى تحفز متوتر ، وهو يسير فى الشارع فى هدوء عجيب ، وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة ساخرة ، وكأنما تروق له هذه اللعبة الجديدة ..

وفى توتر شديد ، غمغم (سمير) :

ـ عجبًا ! إنه يبدو لى مختلفًا تمامًا عن الشخص الذى نعرفه .

حدّق (غسان) فى (أدهم) لحظة ، ثم لم يلبث أن سحب مسدسه فى حذر ، وهو يقول فى شراسة :

ـ وفيم يختلف ؟! إنه نفس الشخص السمج البغيض ، الكاره للحب والسلام ، الذى عرفناه دائمًا .

هزّ (سمير) رأسه ، قائلاً :

ـ كلا .. إنه يبدو لى أطول قامة ، وأكثر قوة ، ويسير باعتداد أكبر ، و .....

قاطعه (غسان) مرتبكًا :

ـ إنه .. إنه لا يبدو لى كذلك ..

هتف (سمير) فى عصبية :

ـ لا تخدع نفسك يا رجل ، وانظر إليه مرة أخرى .

سحب (غسان) مسدسه ، وهو يقول فى حدة :

ـ سأنظر إلى جثته فيما بعد .

كان يستعد لإطلاق النار بالفعل ، عندما عبرت حافلة كبيرة الطريق ، و ...

وفجأة ، انفصل (أدهم) عن الجنود ، الذين يحيطون به ، واندفع عبر الطريق ، دون إنذار مسبق ، فارتفع صرير إطارات الحافلة فى قوة ، وسائقها يحاول كبحها فى الوقت المناسب ، فى حين اندفع (أدهم) يعبر الطريق ، إلى حيث يقف (سمير) و (غسَّان) ، اللذان تجمَّدا من فرط الدهشة والمفاجأة ، وخاصة عندما عبر على قيد سنتيمترات منهما ، وهو يقول بابتسامة ساخرة ، وعينه على المسدس الآلى فى يد الأخير :

ـ مرحبًا .. أهذا من أجلى ؟!

انتفض الاثنان فى عنف ، مع اللغة العربية الصرفة ، التى نطق بها عبارته ، واستدارا معًا يتابعانه ، فى دهشة بالغة ، وهو يدلف إلى مدخل بناية كبيرة ، فى نفس اللحظة التى برز فيها الجنود الإسرائيليون من خلف الحافلة ، وتلفتوا حولهم فى ذعر ذاهل ، وكبيرهم يهتف :

ـ رئيس الوزراء ؟! لقد اختطفوا رئيس الوزراء .

سادت حالة من الهرج والمرج فى الطريق ، والجنود ينتشرون فى كل مكان ، فى مزيج من الذهول والذعر والارتياع ، لاختفاء رئيس الوزراء المباغت ، على هذا النحو ، فدفع (سمير) مسدس (غسَّان) بعيدًا ، وهو يقول فى توتر :

ـ أخفه يا رجل .. لقد اشتعل الموقف بغتة ، دون سابق إنذار .

أخفى (غسَّان) مسدسه فى حزامه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ما الذى فعله هذا الرجل ؟!

قالها ، وهو يندفع بدوره نحو البناية نفسها ، التى اختفى عندها (أدهم) ، فلحق به (سمير) ، وهو يقول :

ـ إنه ليس رئيس الوزراء الإسرائيلى .. ليس هو بالتأكيد .

لم يكد يتمَّ عبارته ، حتى برز رجل من البناية الكبيرة ، فقبضت أصابع (غسَّان) على زناد مسدسه فى سرعة ، ثم لم تلبث أن تجمَّدت فوقها ، وهو يحدِّق فى الرجل ، الذى بدا مختلفًا تمامًا عن رئيس الوزراء ، والذى منحه ابتسامة غامضة ، وهو يقول فى هدوء ، وبلغة عربية صرفة :

- ماذا هناك ؟!

أخفى الرجلان مسدسيهما بسرعة ، و (سمير) يتطلع إليه ، قائلا :

- معذرة يا سيدى .. خلناك شخصًا آخر .

رفع الرجل أحد حاجبيه وعاد يخفضه بسرعة ، وهو يقول :

- شخص آخر ؟!

ثم غمز بعينه ، مستطردًا بابتسامة ساخرة :

- من يدرى ؟! ربما كنت هو !

حدقًا فى وجهه بذهول شديد ، وهو يشير لهما بيديه ، متابعًا :

- ولكن الموقف أخطر من أن يضيع المرء وقته فى التأكد .. أليس كذلك ؟!

تابعاه مرة أخرى فى ذهول ، وهو يمضى فى طريقه ، فى هدوء مثير ، متجاهلا الجنود الإسرائيليين ، الذين شملهم ذهول عجيب ، وهم يبحثون فى جنون عن رئيس الوزراء ، الذى اختفى من بين أيديهم بغتة ، ثم هتف (غسان) :

- أنت على حق .. إنه هو .

غمغم (سمير) :

- هو ؟!

أجابه (غسان) فى حزم :

- نعم .. إنه ذلك الجاسوس ، الذى أثار جنونهم إلى هذا الحد .

قالها ، ثم انطلق يضحك فى قوة ، فتطلع إليه (سمير) لحظة فى دهشة ، قبل أن يشاركه ضحكته ، وهما يعودان أدراجهما إلى متجر الأخير ، وقد حملا فى أعماقهما قصة مثيرة ، لن يملَّ أحدهما روايتها لأبنائه وأحفاده قط ..

أما (أدهم) ، فقد راح يقطع الطرقات فى خطوات سريعة ، متجاوزًا منطقة الحصار إلى قلب المدينة ، الذى لم تمتدَّ إليه الإجراءات الأمنية بعد ، حتى بلغ ذلك الحىَّ ، الذى يقيم فيه (أديب الريس) ، فانحرف إليه فى هدوء ، ودار حول المبنى ، ثم اندفع فجأة عبر مدخله الخلفى ، وصعد فى درجات سلمه فى سرعة وخفة ، ودون أن يصدر عنه أدنى صوت ، حتى بلغ ذلك الطابق ، الذى يقيم فيه (أديب) ، ففتح باب المطبخ الخلفى فى سرعة ، ودلف إلى الشقة ، وأغلق بابها خلفه فى إحكام ، و ...

« كنت فى انتظارك .. »

باغتته العبارة ، فاستدار إلى مصدرها فى سرعة وخفة ، وهمّ بالانقضاض على صاحبها ، لولا أن وقع بصره ، فى الضوء الخافت ، على وجه (راشيل) ، وهى تكمل فى سخرية ، مصوبةً إليه فوهة مدفعها القصير :

ـ لو أننى إسرائيلى متحفز الآن ، لكنت أنت جثة هامدة أيها المغرور .

ابتسم فى سخرية ، قائلاً :

ـ خطأ يا (س ١٠٠) ، فلو كنت جنديًا إسرائيليًا متحفزًا ، لكنت أنت جثة هامدة لا أنا .

مطت شفتيها ، قائلة :

ـ وكيف أيها المغرور ؟! ألم تنتبه إلى أن مدفعى مصوَّب إلى رأسك مباشرة .

هزّ كتفيه ، قائلاً :

ـ ما دمت تسألين : كيف ؟! فالجواب هو ..

انزلق فجأة ، فى خفة مدهشة ، وعبر الأمتار الثلاثة ، التى تفصله عنها ، بقفزة واحدة ، ليمسك معصمها الأيمن بقبضته اليسرى ، ويلويه فى قوة وسرعة ، أجبرتاها على إفلات مدفعها الآلى القصير ، فالتقطه بيمناه ، وألصق فوهته الباردة بعنقها ، وهو يقول ساخرًا :

ـ هكذا .

احتقن وجهها بشدة ، وخيِّل إليها أنها لم تره يتحرك من مكانه ، وإنما فوجئت به أمامها ، فهتفت فى حنق :

ـ والآن ماذا ؟! هل أصفق ، أم أهتف إعجابًا ؟!

ألقى المدفع إليها ، قائلاً :

ـ لا هذا ولا ذاك .. يكفى أن تعدّى لنا قدحين من الشاى .

التقطت المدفع ، وهى تقول فى عصبية :

ـ ولماذا لا تعدّهما أنت ؟!

تجاهل سؤالها ، وهو يحلّ رباط عنقه ، وينزع قناع تنكره عن وجهه ، قائلاً :

ـ إننى أتناوله بدون سكر على الإطلاق .

مطت شفتيها مرة أخرى ، وأسندت مدفعها إلى جدار المطبخ ، وراحت تعدّ الشاى ، وهى تقول :

ـ إنك تتعمّد إثارة جنونهم .. أليس كذلك ؟!

لم يبد عليه أنه قد سمع سؤالها ، وهو يسترخى على مقعد قريب ، ويسبل جفنيه على عينيه المرهقتين ، قائلاً :

ـ كيف عرفت أننى هنا ؟!

أجابته فى شىء من التحدى :

ـ ربما كنت أعرف أكثر مما تتصوَّر .

ابتسم فى سخرية ، قائلاً :

ـ أو أقل مما تتصوَّرين .

رمقته بنظرة غاضبة ، وهمَّت بقول شىء ما ، إلا أن رغبتها فى استفزازه جعلتها تسأله بلهجة ساخرة :

ـ هل كنت تتصوَّر أنك ستخدع رجال التفتيش ، بانتحالك شخصية (أديب) هنا ؟!

هزَّ رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ مطلقًا ، فالمفترض أن (أديب) فى مصنعه فى (يافا) الآن ، وظهوره فى الوقت ذاته هنا ، سيثير حتمًا عشرات التساؤلات .

سألته فى عصبية :

ـ ما الذى كنت ستفعله إذن ؟!

هزَّ كتفيه ، واسترخى فى مقعده ، وهو يرفع ذراعيه إلى ما خلف رأسه ، ويسنده إليهما ، قائلاً :

ـ سأنام .

التفتت إليه فى دهشة ، وهى تهتف مستنكرة :

ـ تنام ؟! أتشعل هذا البركان ، ثم تذهب للنوم بكل هدوء ؟!

ابتسم مغمغمًا :

ـ كل المخلوقات تحتاج إلى النوم .

قالت فى حدة :

ـ ولكنهم مصرّون على تفتيش كل شبر من المدينة ، وعدم وجود (أديب) هنا لا يعنى أنهم سيستثنون منزله ، سيحطمون الباب لو اقتضى الأمر ، ولكنهم لن يتراجعوا أبدًا .

هزَّ كتفيه مرة أخرى ، وقال :

ـ هذا حقهم .

كانت واثقة من أنه يخفى شيئًا ما حتمًا ، لذا فقد رمقته بنظرة ساخطة ، وهى تضع أمامه قدح الشاى الساخن ، فالتقطه فى هدوء ، وارتشف منه رشفة صغيرة ، قبل أن يعيده إلى المائدة ، قائلاً :

ـ لماذا بحثت عنى ؟!

تجمَّدت لحظة للسؤال ، وازدردت لعابها فى ارتباك ، سرعان ما أخفته خلف قناع من الصرامة ، وهى تقول :

ـ كنت أشعر بالقلق .

سألها فى هدوء مستفز :

ـ لماذا ؟!

أجابته فى حدة :

ـ مجرد قلق .. هل يحتاج كل شىء إلى تفسير دقيق ؟!

صمت لحظة ، ثم أجاب :

ـ ليس كل شىء .

وعاد يلتقط قدح الشاى ، فقالت فى توتر :

ـ لقد شعرت بالقلق ، عندما افترقنا أمس ، والأمور فى أوج توترها ، وخشيت أن يكون قد أصابك مكروه ، فذهبت إلى ذلك الرجل فى مصنعه ، و ...

قاطعها فى قلق مفاجئ :

ـ أى رجل ؟!

أشارت بيدها ، قائلة :

ـ ذلك الفلسطينى .. (الريس) .. (أديب الريس) .

انعقد حاجبا (أدهم) فى صرامة غاضبة ، وهو يقول :

ـ ذهبت إلى (أديب) فى مصنعه .

هتف بها فى غضب مستنكر ، فأجابته فى عصبية وارتباك :

ـ كنت أريد الاطمئنان عليك فحسب .

انعقد حاجباه فى شدة أكبر ، وهو يهتف :

ـ خطأ .. خطأ ..

ثم نهض من مقعده ، وبدت عليه علامات التفكير العميق ، وهو يكرر :

ـ أكبر خطأ .

تضاعف التوتر فى داخلها ألف مرة ، وهى تتطلع إليه ، متمتمة :

ـ لقد تظاهرت بأننى أحتاج إلى استجوابه ، و ...

قاطعها بإشارة صارمة من يده ، جعلت لسانها ينعقد فى حلقها ، وهو يواصل التفكير فى الأمر بعمق ، قبل أن يلتفت إليها ، قائلاً فى حزم :

ـ ما الذى تحتمه خطة الطوارئ ، بالنسبة لك ؟!

سألته فى دهشة :

ـ خطة الطوارئ ؟! ولماذا خطة الطوارئ الآن ؟!

سألها فى صرامة شديدة :

ـ أجيبى فورًا .. ما الخطوة الخاصة بخطة الطوارئ لك ؟! هل ستنتقلين إلى شخصية بديلة ، أم ستسعين للخروج من هنا بجواز سفر خاص ؟!

ارتبكت أكثر ، وكادت تجيب سؤاله ، لولا أن ارتفعت دقات مباغتة على باب المنزل ، وارتفع صوت يهتف بالعبرية فى صرامة :

ـ افتح الباب .. تفتيش إجبارى .

انتفض جسدها فى ذعر ، وهى تهتف :

ـ ربّاه ! لقد وصلوا !

وثب إليها ، والتقط كوب الشاى ، وسكبه فى الحوض ، وهو يدفعها أمامه ، هامسًا :

ـ سيرى على أطراف أصابعك .

تحرّكت أمامه مرتجفةً ، وهى تتساءل عما يقودها إليه ، فى حين عاد ذلك الصوت يرتفع هاتفًا :

ـ افتح الباب أو نحطّمه .

ضغط (أدهم) جزءًا من الجدار ، فى تلك اللحظة ، فدار حول نفسه ، كاشفًا حجرة صغيرة ، تحوى فراشًا صغيرًا ، ودولابًا من ضلفتين ، ومنضدةً صغيرة ، فدفعها داخلها ، ودلف خلفها ، وهو يغلق ذلك الجزء من الجدار ، فى نفس الوقت الذى ارتفع فيه صوت صاحب المنزل ، وهو يقول فى غضب :

ـ أى باب هذا الذى تحطمونه ؟! إنه منزل السيِّد (أديب الريس) .. رئيس العمال ، فى أحد مصانع (يافا) ، وهو لا يعود قبل منتصف الليل .

صاح به الإسرائيلى فى غلظة :

ـ الأوامر هى الأوامر يا رجل .. لا استثناءات ..



ضغط (أدهم) جزءًا من الجدار ، فى تلك اللحظة ، فدار حول نفسه ، كاشفًا حجرة صغيرة ..

إما أن تفتح الباب ، أو نحطمه على الفور .. هل تفهم ؟!

هتف صاحب المنزل فى غضب :

ـ فليكن .. أعلم أن المناقشة معكم غير مجدية .. من حسن الحظ أن السيد (أديب) قد ترك مفتاحًا احتياطيًا .. سأحضره وأفتح الباب على الفور .

تمتمت (راشيل) :

ـ حمدًا لله .. لولا هذه الحجرة ، لكنا ..

قاطعها (أدهم) فجأة فى توتر :

ـ أين مدفعك ؟!

انطلقت من حلقها شهقة مذعورة ، وهتفت بوجه شاحب :

ـ يا إلهى ! إنه هناك ، عند جدار المطبخ .

انطلق هتافها ، فى نفس اللحظة التى دار فيها المفتاح فى باب شقة (أديب) ..

وكان هذا يعنى أن الإسرائيليين سيكشفون أمر المدفع حتمًا .

وسيفجر هذا الموقف كله .

بمنتهى العنف .

★ ★ ★

٥ ـ لحظات الخطر ..

احتقن وجه (جولدمان) فى غضب هادر ، وهو يدور فى حجرته كالمجنون ، ويلوح بذراعيه فى آن واحد ، هاتفًا :

ـ مستحيل ! لا يمكننى تصديق هذا .. على الرغم من أننى قد قرأت ملف الرجل كله ، إلا أننى لا أستطيع تصديق ما فعله هذه المرة .

ثم استدار إلى رجاله ، صائحًا :

ـ لقد انتحل شخصية رئيس وزرائنا ، وأدلى بتصريحات سياسية ، على الهواء مباشرة .

كان وجهه أحمر كالدم ، وهو ينطق الجملة الأخيرة ، حتى خيل للرجال أنه سينفجر بغتة ، ليغمر وجوههم وأجسادهم بالدم ، فغمغم أحدهم ، محاولاً تهدئة الموقف :

ـ لن يمكنه أن يذهب بعيدًا ، بعد أن فعل هذا .

صاح (جولدمان) بغضب أكثر :

ـ ولكنــه ذهب بـالفعل .. لقد اختفـى ، أمـام أعين فرقة حراسة كاملة ، وكاد يصيب أفرادها بـالجنون .. لقد بحثوا عنه ، ولم يعثروا على أدنى أثـر لـه .. هل يمكنكم تصديق هذا ؟!

كان (دافيد) أشدّ غضبًا منـه ، على الرغم من جلوسه أمام شاشة الكمبيوتر ، فغمغم محنقًا :

ـ إنه يتعمَّد استفزازنا والسخرية منا طوال الوقت .

صرخ فيه (جولدمان) :

ـ إنت تستفزنى أكثر يا (دافيد) ، باهتمامك الشديد بذلك الكمبيوتر السخيف ! اترك هذا العبث الإليكترونى يا فتى ، وانضمّ إلىَّ ، فى البحـث عن وسيلة للإيقاع بذلك الشيطان ، قبل أن يقضى علينا جميعًـا ... ألا تدرك مـا الذى فعلته خدعتـه الجريئـة الأخيرة ؟! إن رئيس الوزراء غاضب بجنـون ، وأنـت تدرك مثلـى حماقته ، عندما يغضب على هذا النحو .

استدار إليه (دافيد) ، وهو ينهض ، قائلاً فـى عصبية :

ـ معذرة يا أدون (جولدمـان) .. أنـا أدرك جيِّـدًا ما يمكن أن يفعلـه السـاسة ، بعـد فضيحـة كهذه ،

ولكننى ما زلت أؤمن بأن الوسـيلة الوحيدة ، للإيقاع بذلك الشيطان ، هى هذا الكمبيوتر المفكر .

صرخ (جولدمان) :

ـ فلتذهب أنت والكمبيوتر إلى الجحيم .

سيطر (دافيد) على أعصابـه فى صعوبـة ، وهـو يقول :

ـ صدقنى يا أدون (جولدمـان) .. هـذا الكمبيوتـر ليس سيئًا كما تتصوَّر .. إنه يراجع الآن كل ما حدث ، منذ وصل (أدهم صبرى) إلى هنا ، ويضيف إليه كل التقارير الأمنيةَ الحديثة ، ثـم يعالج كـل هـذا بخبراتـه التراكمية ، التى تتزايد مع مـرور الوقت ، وسيمنحنا فى النهاية اقتراحاته ، المبنية علـى الحقـائق وقواعد المنطق ، ولنا بعدها أن نقبلها أو نرفضها .

لوَّح (جولدمان) بسبَّابته فى وجهه بحـدة ، قـائلاً فى غضب :

ـ عد إلى رشدك يـا (دافيد) ، وانـس هـذا العبث الإليكترونى بعض الوقت ، فما يفعله (أدهم صبرى) هذا لا يخضع لقواعد العقل والمنطق ، أو الـ ....

قبل أن يتمّ عبارته ، ارتفع صفير مفاجئ من جهـاز

الكمبيوتر ، فالتفت إليه (دافيد) فى حدة وانفعال ، هاتفًا :

ـ ها هو ذا .

سأله (جولدمان) فى عصبية :

ـ ما الذى فعله بالضبط ؟!

أجابه (دافيد) ، وهو يجلس أمام الكمبيوتر فى سرعة :

ـ لقد توصَّل إلى حقيقة جديدة .

قال (جولدمان) فى سخرية عصبية ، وهو يتطلَّع إلى رجاله ، مشيرًا إلى الكمبيوتر :

ـ أراهن على أنه لم يحدِّد موقع (أدهم صبرى) .

أجابه (دافيد) فى سرعة :

ـ كلا .. لم يفعل .

ثم استدرك فى لهفة :

ـ ولكنه كشف نقاطًا لم ننتبه إليها من قبل .

سأله (جولدمان) :

ـ مثل ماذا ؟!

أجابه ، مشيرًا إلى شاشة الكمبيوتر :

ـ (راشيل فريمان) .

سأله (جولدمان) فى عصبية :

ـ ومن (راشيل فريمان) هذه بحق الشيطان ؟!

أجابه (دافيد) ، وهو يراجع المعلومات على الشاشة فى اهتمام :

ـ إنها مقدَّم بجيش الدفاع الإسرائيلى ، لم يلتق بها أحدنا من قبل ، أو تثير اهتمام أى مخلوق ، منذ التحقت بالجيش ، وحتى حصلت على رتبتها هذه ، وعلى الرغم من هذا ، فالكمبيوتر يضع حولها علامة استفهام كبيرة .

سأله (جولدمان) فى عصبية :

ـ ولماذا ؟! هل تبتاع أدوات تجميل مصرية ؟!

أجابه (دافيد) ، وهو يضغط أزرار الكمبيوتر :

ـ كلاَّ ، ولكنها كانت عند جبل (الخليل) أمس ، فى نفس الموقع تقريبًا ، الذى هبط فيه (أدهم صبرى) ، ولقد استوقفتها دورية عسكرية ، إلا أنها كانت وحدها ، ولكنها ، وبعد أقل من ساعة ، أبلغت بسرقة سيارتها (الجيب) ، وهى نفس السيارة التى رصدتها الهليوكوبتر فيما بعد ، فى ذلك الطريق المهجور ..

كان هذا كفيلاً بجذب انتباه (جولدمان) إلى أقصى حد ، فجذب مقعدًا ، وجلس إلى جوار (دافيد) ، وهو يقول فى حذر :

- ربما كان هذا موقع عملها الطبيعى ، ثم هاجمها (أدهم) فيما بعد .

قال (دافيد) فى حزم :

- هذا ما تقوله الأوراق الرسمية يا أدون (جولدمان) ، ولكن الكمبيوتر يشير إلى أن تلك الرسالة اللاسلكية ، التى رصدتها أجهزة الاعتراض الخاصة بنا ، قد تم بثها من تلك البقعة بالتحديد .

ثم أدار عينيه إليه ، مستطردًا :

- وهنا نقطة أخرى .

سأله (جولدمان) فى حذر أكثر :

- وما هى ؟!

أجابه (دافيد) ، وهو يشير إلى تقرير أمنى على الشاشة :

- هذا الصباح ، ذهبت (راشيل فريمان) ، دون أوامر مسبقة ، أو أية أسباب منطقية ، لرؤية رئيس عمال مصانع (كوهين) فى (يافا) ، على نحو أثار شكوك (كوهين) نفسه ، ودفعه إلى إبلاغ رجلنا (موشى ماروسكى) فى مكتب (يافا) بالأمر ، ولقد أورد (ماروسكى) هذا فى تقرير أمنى موجز .

جفَّ حلق (جولدمان) ، وهو يسأله :

- وما اسم رئيس العمال هذا ؟!

أجابه (دافيد) فى سرعة :

- (أديب) .

سأله (جولدمان) فى دهشة :

- أهو عربى ؟!

أومأ (دافيد) برأسه ، مجيبًا :

- فلسطينى .

انعقد حاجبا (جولدمان) فى غضب ، وهو يقول :

- ماذا ؟! أية جنسية هذه ؟! لم أسمع بها من قبل !

تبادل رجاله نظرة ساخرة ، قبل أن يقول أحدهم فى هدوء :

- لقد أصبحت لهم سفارات رسمية بالفعل .

هتف فى حدة :

- ولو .

ثم عاد يشير إلى (دافيد) فى عصبية ، مستطردًا :

- (أديب) ماذا ؟

أجابه (دافيد) فى سرعة ، وكأنما يتقى غضبه :

- (الريس) .. (أديب الريس) .

انعقد حاجبا (جولدمان) فى شدة ، وهو يقول :

ـ ماذا ؟!

قالها ، وهبَّ من مقعده بحركة حادة ، فسأله (دافيد) :

ـ هل تعرفه ؟!

أشار بسبَّابته ، مجيبًا :

ـ لقد رأيته أمس .

سأله فى لهفة :

ـ أين ؟!

انعقد حاجباه أكثر وأكثر ، وهو يلوِّح بسبَّابته ، مجيبًا :

ـ عند المدخل الرئيسى .

قالها ، وعقله يستعيد كل ما حدث ليلة أمس ، وبخاصة أسلوب (أديب) الفظَّ الجلف ، و...

وبكل غضب الدنيا ، صرخ :

ـ اللعنة !

ثم هتف برجاله فى صرامة :

ـ أريد (أديب) هذا الآن .. اذهبوا فورًا إلى مصنع (كوهين) فى (يافا) ، وألقوا القبض عليه ، وأحضروه إلى هنا على الفور .

تحرك الرجال بالفعل ، ولكنه هتف يكمل أوامره :

ـ لا تعلنوا هدفكم ، حتى يصبح فى قبضتكم بالفعل .. ولا تطلقوا عليه النار ، لو حاول الفرار .. أريده حيًّا .. هل تفهمون ؟! حيًّا .. .

وضغط قبضته بكل قوته ، مستطردًا فى حنق :

ـ أنا واثق من أنه يخفى معلومات بالغة الخطورة ، وأصرّ على أن أعتصرها منه بقبضتى هذه .

قال (دافيد) فى انفعال :

ـ يمكننا أن نرسل إلى (ماروسكى) ، ليلقى القبض عليه ، حتى لا يفلت لسبب أو آخر ، قبل أن يصل إليه رجالنا .

لوَّح (جولدمان) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ فكرة لا بأس بها يا (دافيد) ، مع قليل من التعديل .

والتقط سمَّاعة الهاتف ، مستطردًا :

ـ سأطلب من (ماروسكى) مراقبته فحسب ، حتى يصل الرجال .

انشغل (دافيد) بضرب أزرار الكمبيوتر ، فى اهتمام بالغ ، فى حين راح (جولدمان) يلقى أوامره

لمدير مكتب (يافا) (موشى ماروسكى) ، ثم لم يلبث أن التفت إليه ، قائلاً :

ـ أما بالنسبة لتلك المقدم (فريمان) ..

قاطعه (دافيد) ، دون أن ينتبه :

ـ عجبًا ! المفترض أن (أديب الريس) هذا أحد المتعاونين مع (أمان)(*) .

عقد (جولدمان) كفيه خلف ظهره ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لو أنه كذلك بالفعل ، فلن يكون هناك ما يخشاه .

ثم استطرد بلهجة آمرة :

ـ اطلب من رجال الجيش استدعاء (راشيل فريمان) على الفور ، وعندما تصل إليهم ، عليهم إحضارها إلى هنا دون إبطاء .

وتألقت عيناه بشدة ، وهو يستطرد فى حزم :

ـ أنا واثق أن عملية تقليم الأظفار هذه ستحكم الحصار حول (أدهم صبرى) أكثر وأكثر ، وستجعله وحيدًا هنا .. بلا أصدقاء أو متعاونين .. وهذا هو طرف الخيط ، الذى سيلتف فى النهاية حول عنقه ، و ...

(*) أمان : المخابرات الحربية الإسرائيلية .

لم يتم عبارته ، وإنما أكملها بضحكة قصيرة مقتضبة ..

ضحكة انتفض لها قلب (دافيد) فى صدره انتفاضة عجيبة ..

للغاية ..

★ ★ ★

« انتظرى هنا ... »

نطق (أدهم) الكلمة فى صرامة ، وهو يدفع ذلك الجزء من الجدار قليلاً ، ثم يندفع خارج تلك الحجرة السرية ، معيدًا الجدار إلى موضعه ، قبل أن تعترض (راشيل) بحرف واحد ، أو تكتمل دورة المفتاح فى الباب ..

وبحركة غريزية ، اندفعت (راشيل) نحو الجدار ، وكأنما تهم باللحاق بـ (أدهم) ، إلا أنها لم تكد تلمسه ، حتى سمعت صوت صاحب المنزل فى الخارج ، يقول فى صرامة :

ـ الشقة أمامكم .. ابحثوا فيها عما تريدون ، ولكن حذار أن تتلفوا شيئًا ، وإلا قاضيتكم بتهمة الـ ....

قاطعه قائد فرقة التفتيش فى غلظة :

- اصمت يا رجل .

كان وقع الأقدام ، خارج تلك الحجرة السرية ، يشير فى وضوح إلى أن الجنود الاسرائيليين يفتشون المكان بمنتهى الدقة ، حتى إن قلبها راح يخفق فى عنف ، وهى تتساءل بقلق بالغ : ترى أين ذهب (أدهم) ؟!

هل أمكنه استعادة مدفعها ؟!

أين ذهب به إذن ؟!

إنه لم يغادر المنزل من الباب الخلفى حتمًا ، فهى تعلم أن الإسرائيليين يحيطون بالمبنى كله الآن ، ما داموا قد بدءوا فى تفتيشه ..

إنها نفس القواعد التى ستتبعها هى ، فى ظروف مماثلة ..

حصار كامل للمكان ..

التأكد من إغلاق وتأمين كل مخارجه ..

ثم بدء عملية التفتيش ..

وهذا يعنى أنه من المستحيل أن يفلت شخص واحد .. أى شخص !

« هل انتهيتم ؟! »

ارتفع صوت صاحب المنزل يخترق أفكارها ، فارتجف جسدها ارتجافة خافتة ، لم تلبث أن تحولت إلى موجة توتر عارمة ، عندما أجابه الإسرائيلى :

- مازلنا لم نفتش المطبخ والحمام الإضافى .

سأله صاحب المنزل فى فضول :

- ما الذى تبحثون عنه بالضبط ؟! أسلحة مسروقة ؟!

أجابه الإسرائيلى فى صرامة :

- بل عن جاسوس .

هتف صاحب المنزل بدهشة بالغة :

- جاسوس ؟! كل هذا من أجل جاسوس ؟!

صاح به الإسرائيلى فى حدة :

- اصمت يا رجل .

هتف الرجل :

- أرونى صورته على الأقل .. ربما أكون قد لمحته هنا أو هناك .

تعالى وقع أقدام الإسرائيلى ، وهو يتجه إليه ، قائلاً :

- يقولون : إن له أشكالاً لا حصر لها .

ضحك صاحب المنزل ، وهو يقول :

ـ كيف ستعثرون عليه إذن ؟!
أجابه فى صرامة :
ـ إننا نفحص أوراق الجميع بلا استثناء .
ثم هتف به فى خشونة :
ـ وبالمناسبة .. أرنى أوراقك .
قهقه صاحب المنزل ، وهو يقول :
ـ أوراقى أنا ؟! ها هى ذى .. إننى أقيم هنا منذ أربعين عاما ، من قبل حتى أن تولد أنت .
كان من الواضح أن الإسرائيلى يفحص أوراقه جيدًا ، عندما ارتفع صوت جندى آخر يهتف ، من ناحية المطبخ :
ـ ما هذا ؟!
هوى قلبها بين قدميها ، عندما ارتفع الهتاف ، وكادت تندفع خارج الحجرة ، مع وقع أقدام الجندى الأوّل ، وهو يعدو نحو المطبخ ، وخلفه صاحب المنزل ، وهو يهتف :
ـ ما الذى وجدته ؟! هه .. ماذا هناك ؟!
وانتفض قلبها بين ضلوعها فى عنف ..
لقد عثروا على (أدهم) ..

إنه داخل المنزل حتمًا ..
ولا يوجد سبيل واحد للخروج منه ..
لقد كشفوا أمره بلا شك ..
راودتها نفسها على أن تندفع خارج تلك الحجرة السرية ، وتهاجم الجنود ، و .. وماذا ؟!
إنها لا تمتلك سلاحًا واحدًا لمواجهتهم ..
أى سلاح ؟!
السلاح الوحيد لديها تركته مستندًا إلى جدار المطبخ ..
وبسببه حدث كل هذا ..
بسببه جازف (أدهم) بحياته ..
وانكشف أمره ..
و ....
ولكن مهلاً ....
إنها لم تسمع دوى رصاصات ..
أو أصوات قتال ..
و(أدهم) ليس بالرجل الذى يقع فى قبضة الآخرين ، دون مقاومة عنيفة ..
بل دون أن يتحوّل الموقف كله إلى قطعة من الجحيم ..

قطعة كبيرة جدًا ..

ما الذى كان يهتف به ذلك الجندى إذن ؟!

لم يكد السؤال يسرى فى جسدها ، حتى سمعت قهقهة صاحب المنزل ، وهو يعود من ناحية المطبخ ، قائلاً :

ـ كل هذا لأن أحدهم سكب بعض الشاى فى الحوض بإهمال ؟!

صاح به الإسرائيلى فى حدة :

ـ الرجل كان على حق .. ألا يوحى إليك هذا بأن أحدهم كان هنا منذ قليل ؟!

قهقه صاحب المنزل ثانية ، وهو يقول :

ـ هذا لو أنك لا تعرف السيد (أديب) ، صاحب المنزل .. إنه يعود فى كل ليلة مخمورًا ، حتى إننى أتساءل : كيف يعرف طريقة إلى هنا ؟! أراهنك على أنه قد صنع قدحًا من الشاى فى الصباح ، ثم سكبه قبل أن يدرك حتى أنه قد صنعه .

راح الإسرائيلى يناقشه فى هذا الأمر ، وهما يغادران المنزل ، ويغلقان بابه خلفهما فى إحكام ..

ولثانية أو ثانيتين ، ظلت (راشيل) جامدة فى

مكانها ، فى انتظار أن ينصرف صاحب المنزل والاسرائيليين من أمام المنزل ، ثم ادركت فجأة أنها لن تحتمل الانتظار ، ففتحت ذلك الجزء من الجدار فى سرعة ، واندفعت خارجه فى لهفة ، و ....

« إلى أين ؟! »

انتفض جسدها فى عنف ، مع السؤال الهامس ، وكادت تطلق من حلقها شهقة ذعر قوية ، لولا أن وضع (أدهم) يده على شفتيها ، مستطردًا فى حزم :

ـ إنهم لم ينصرفوا بعد .

حدَّقت فى وجهه بذهول ، ثم نقلت بصرها إلى مدفعها بين يديه ، قبل أن تهتف فى همس شديد :

ـ أين كنت ؟! لقد فتشوا الشقة كلها ؟!

أشار بيده إلى أعلى ، مجيبًا فى سخرية :

ـ تعلقت بسقف الحمام الاحتياطى .

حدَّقت فى وجهه بذهول أكثر ، قبل أن تهمس :

ـ كيف ؟! لا يوجد ما تتعلق به فى سقف الحمام الاحتياطى !

هزَّ كتفيه ، قائلاً :

ـ كان الأمر يحتاج إلى بعض اللياقة فحسب .



انتفض جسدها فى عنف ، مع السؤال الهامس ، وكادت تطلق من حلقها شهقة ذعر قوية ، لولا أن وضع (أدهم) يده على شفتيها ..

هتفت ذاهلة :

ـ بعض اللياقة ؟! وأنت تحمل مدفعى الآلى .

دفع المدفع إليها ، وهو يقول مبتسمًا :

ـ ألم أقل لك : إن الأمر كان يحتاج إلى بعض اللياقة ؟!

انفرجت شفتاها ، لتقول شيئًا ما ، ولكنه وضع سَبابته على شفتيها ، وهو يشير بسَبابته الأخرى إلى الباب ، هامسًا :

ـ فيما بعد .. إنهم ما زالوا بالخارج ، وأى صوت كفيل بأن ..

قبل أن يتمّ عبارته ، انطلق فجأة رنين جهاز الاستدعاء الصغير فى حزامها(*) ..

ومع الرنين المرتفع المباغت ، هتف الإسرائيلى فى الخارج :

(*) جهاز الاستدعاء الصغير (Pager) : جهاز إليكترونى صغير ، تقتصر مهمته على استقبال رقم الهاتف ، الخاص بالجهة الطالبة ، ولبعض أنواعه القدرة على نقل سطر أو عدة أسطر من رسالة موجزة ، لاستدعاء شخص ما ، أو توجيهه إلى مكان ما ، والمفترض أن يبادر ذلك الشخص بالاتصال بالرقم الطالب ، فور تلقيه الرسالة أو الاستدعاء .

- يا للشيطان ! هناك شخص ما بالداخل .. افتح الباب يا رجل .. افتح أو حطمه بلا تردُّد ..

واشتعل الموقف مرة أخرى ..

وبعنف ..

★ ★ ★

لم يكد ذلك الماء البارد يرتطم بوجه (قدرى) ، حتى انتفض فى عنف ، واستعاد جزءًا من وعيه المفقود ، وهو يتمتم فى ضعف :

- آه .. ماذا حدث ؟!

أتاه صوت صارم شامت ، يقول بلغة عربية سليمة :

- لقد فقدت وعيك فحسب يا سيِّد (قدرى) ، ولكن اطمئن .. لن اسمح لك بالاستمتاع بتلك الغيبوبة طويلاً .

كان (قدرى) يشعر بآلام مبرحة ، فى عنقه وأطرافه ، وهو يرفع عينيه إلى صاحب الصوت ، مغمغمًا :

- أهو أنت ؟!

كان (إفرام ياهو) يجلس أمامه ، واضعًا إحدى ساقيه فوق الأخرى ، ومتطلعًا إليه فى ظفر شامت

متشف ، وإلى جواره يقف رجل ضخم الجثة ، أصلع الرأس ، يبدو أشبه بقراصنة العصور الوسطى ، وآخر نحيل طويل ، يرتدى معطفًا شبيهًا بمعاطف الأطباء ..

أما المكان نفسه ، فلم يكن يشبه تلك الحجرة النظيفة ، التى كان يقيم فيها بلا أثاث ، حتى آخر لحظة يذكرها ..

وعندما استعاد المزيد من وعيه ، انتبه (قدرى) إلى أنه يجلس على مقعد كبير ، قُيِّد إليه معصماه وكاحلاه ، بأغلال معدنية رفيعة متينة ، على نحو لا يسمح له بالتحرُّك أبدًا ، مهما بلغت مقاومته ..

وفى شىء من العصبية ، قال (قدرى) :

- إنك تنتقم مما فعلته بك .. أليس كذلك ؟

هزَّ (إفرام) كتفيه ، وقال :

- أمر طبيعى يا سيِّد (قدرى) .

ثم مال إلى الأمام ، واكتسب صوته رنة قاسية ، وهو يستطرد :

- هل تصوَّرت أنه من الممكن أن تسخر من أحد رجال (الموساد) ، ثم يمضى هذا بلا عقاب ؟!

أجابه (قدرى) فى سخرية :

- كلاً بالطبع .. لقد توقعت الحصول على مكافأة .

انعقد حاجبا (إفرام) فى غضب ، وأشار إلى ذلك الأصلع ، وهو يقول فى حدة :

- وستحصل عليها بالفعل .

اندفع الأصلع نحو (قدرى) ، وهوى على فكه بلكمتين قويتين ، ارتج لهما كيانه كله ، وسالت معهما الدماء من طرف شفتيه ، فقال فى غضب :

- ستدفعون ثمن هذا غاليًا .

ابتسم (إفرام) فى سخرية ، وهو يقول :

- حقًا ؟!

ثم أشار إلى الأصلع ثانية ، فاندفع يعيد الكرّة ، على نحو كاد (قدرى) يفقد وعيه معه ثانيةً ، فسقط رأسه على صدره ، وراح يلهث فى قوة ، و(إفرام) يقول :

- ترى هل استوعبت الدرس يا سيد (قدرى) .. إنها تجربة لما يسمونه بالفعل الشرطى المنعكس (*) ..

(*) الفعل الشرطى المنعكس (Conditioned Reflex) : هو فعل انعكاس (رد فعل) يتم بناء على شروط خاصة ترتبط به ، كأن تشعر بالجوع ، كلما وقع بصرك على الطاهى ، أو أن يسرى فى جسدك التوتر ، كلما شاهدت معلم الرياضيات ، الذى كان يسىء معاملتك ، وهكذا ...

كلما تفوهت بما لا يروق لى ، تنال لكمتين قاسيتين .

قال (قدرى) فى ألم :

- وماذا لو تفوهت بما يروق لك ؟!

أطلق (إفرام) ضحكة ساخرة ، وهو يجيب :

- لن تتلقى اللكمتين .

حاول (قدرى) أن يبتسم فى سخرية ، وهو يقول :

- يا لها من شروط للعبة !

هز (إفرام) كتفيه مرة أخرى ، قائلاً :

- هذا ما يروق لى دائمًا .. أن أضع قواعدى بنفسى .

قال (قدرى) فى سخرية :

- ربما لأنك تخشى الفشل ..

أجابه (إفرام) فى صرامة :

- بل لأننى أصر على النجاح .

هتف (قدرى) :

- حقًا ؟! يا له من أسلوب لضمان الفوز !

ثم رفع عينيه إليه فى صعوبة ، مكملاً :

- ترى هل أفلح هذا فى الإيقاع بـ(أدهم) ، أم أنه ما زال يجبركم على اتباع قواعده ؟!

احتقن وجه (إفرام) فى شدة ، وهتف ، وهو يشير إلى ذلك الضخم الأصلع :

- إنك تستحقها بالتأكيد يا سيد (قدرى) .

وكالمعتاد ، اندفع الأصلع نحو (قدرى) ، وكال له ثلاث لكمات قوية هذه المرة ، حتى إن رأسه سقط على صدره ، وقد عجز بالفعل عن رفعه ..

وفى توتر ، تطلع إليه (إفرام) ، وهو يشير إلى صاحب المعطف الأبيض هذه المرة ، قائلاً :

- اذهب إليه .

تقدم الرجل من (قدرى) فى سرعة ، وراح يفحص نبضه وضغط دمه ومعدل تنفسه ، قبل أن يقول فى ارتباك :

- لست أعتقد أن باستطاعته احتمال المزيد .. احم .. أعنى لساعة قادمة على الأقل .

تمتم (قدرى) فى صعوبة :

- إذن فأنت طبيب بالفعل .

ارتبك الرجل أكثر ، وهو يتمتم :

- الواقع أننى ..

قاطعه (إفرام) فى حدة :

- هل ستروى له قصة حياتك أم ماذا ؟!

احتقن وجه الرجل بشدة ، وأسرع يعود إلى موضعه ،

فى حين نهض (إفرام) إلى حيث يجلس (قدرى) ، وراح يدور حول مقعده فى بطء ، وهو يقول :

- ها هى ذى القواعد الجديدة يا سيد (قدرى) ... لقد حاولنا أن نحيطك برعايتنا وعنايتنا ، على الرغم من انتمائك إلى المعسكر المضاد ، ولكنك أبيت إلا أن تعبث معنا ... وللعبث معنا ثمن باهظ يا رجل ..

ثم رمقه بنظرة صارمة ، مستطردًا :

- ولهذا أنت هنا .

حاول (قدرى) أن يدير عينيه فى المكان ، الذى بدا له ضيقًا رطبًا ، و(إفرام) يصفه فى شماتة ، قائلاً :

- إنها ليست حجرة فاخرة كما ترى ، بل مجرد قبو .. قبو البيت الكبير .. مكان صغير رطب منعزل ، يكفيك أنت وفئراننا الصغيرة فحسب .. والإقامة هنا ستنطبق عليها نفس القواعد السابقة .. لا طعام أو أثاث ، أو حتى قدرة على الحركة ، إلا مقابل معلومات .

ثم أشار إلى صدره ، مستطردًا فى صرامة :

- وبالقدر الذى أحدده أنا .

قال (قدرى) فى عصبية :

ـ من السهل عليك أن تبدى كل القوة والشجاعة ، مع رجل مقيَّد أعزل .
ابتسم (إفرام) فى سخرية ، قائلاً :
ـ لا تحاول يا سيِّد (قدرى) ، فكل هذه الأساليب الصبيانية لن تنجح فى استفزازى أو ..
قاطعه (قدرى) بصيحة هادرة غاضبة :
ـ أنت جبان حقير .
اتسعت عينا (إفرام) ، واحتقن وجهه فى شدة ، قبل أن يصرخ :
ـ جبان حقير ؟! أنا ؟!
ثم صاح بالأصلع فى ثورة :
ـ عليك به .
وفى هذه المرة ، بدا الأصلع كالثور الهائج ، وهو ينقضّ على (قدرى) ، وذلك الطبيب يهتف :
ـ لا .. إنه لن يحتمل .
ولكن الأصلع لم يستمع إليه ..
لقد انقضّ على (قدرى) ، ولكمه لكمة قوية فى معدته ..
ثم أخرى فى فكه ..
وثالثة فى صدره ..

ومرة أخرى ، صرخ الطبيب :
ـ هذا غير آدمى بالمرة .
أما (قدرى) ، فقد اتسعت عيناه عن آخرهما بآلام رهيبة ..
وانتفض قلبه بين ضلوعه فى عنف ..
ثم انطلقت من حلقه شهقة قوية ..
و ...
وهوى رأسه على صدره فى عنف ..
وعندئذ ..
عندئذ فقط ، توقَّف الأصلع ..
وفى شىء من الذعر ، اندفع الطبيب يفحص (قدرى) فى سرعة ، و(إفرام) يسأله فى عصبية زائدة :
ـ ماذا به ؟!
وبوجه شاحب كالموتى ، التفت إليه الطبيب ، قائلاً :
ـ لقد .. لقد مات .
واتسعت عينا (إفرام) عن آخرهما ..
فقد كانت مفاجأة مخيفة ..
وعنيفة ..
للجميع .

★ ★ ★

٦ - الغـــــروب ..

لم يكن هناك مجال للاختباء هذه المرة ..

لقد انطلق صفير جهاز الاستدعاء ، ولم يعد هناك مفرّ من المواجهة ..

فالإسرائيليون لن يكتفوا بتفتيش روتينى هذه المرة ..

إنهم سينبشون المكان ، ويقلبونه رأسًا على عقب ، دون أن يتركوا فيه شبرًا واحدًا ..

وسيعثرون حتمًا على تلك الحجرة السرية ..

مهما طال الوقت ..

ولأن الوقت يعنى الكثير ، بالنسبة لرجل مثل (أدهم) ، فقد قررّ اختصار الخطوات ، وبدء المواجهة على الفور ..

لذا ، فلم يكد الإسرائيليون الخمسة ، مع صاحب المنزل يفتحون الباب ، حتى انقضّ عليهم كليث ثائر ..

وعلى الرغم من توقعهم وجود شخص بالداخل ، كانت المفاجأة بالنسبة لهم عنيفة ..

إلى أقصى حد ..

لقد فوجئ قائدهم بقبضة كالقنبلة ، تنفجر فى وجهه ، فتراجع فى عنف ، وتحرّك رجاله الأربعة فى سرعة ، فارتفعت فوهات مدافعهم الآلية نحو (أدهم) ، الذى تحرّك كإعصار بشرى ، فدار حول نفسه ، وحطمت قدمه أنف أولّهم ، ثم أمسكت يده اليمنى مدفع الثانى ، وانثنت ليندفع مرفقه نحوه ، ويرتطم بفكه كالصاعقة ..

وعندما سقط الرجل أرضًا ، كانت قبضة (أدهم) اليسرى تغوص فى معدة الثالث ، فى نفس اللحظة التى اندفعت فيها يده الممسكة بمدفع الثانى ، لتغرس ماسورته فى بطن الرابع ..

ومع انحناء الرجلين ، وهما يطلقان شهقة ألم ودهشة ، وثب (أدهم) إلى أعلى ، ثم هبط بقبضته على مؤخرتى عنقيهما ، فسقطا كالحجر فاقدى الوعى ...

وفى ذهول مذعور ، تراجع صاحب المنزل ، وهو يحمى وجهه بذراعيه ، هاتفًا :

ـ لا .. أنا لم أفعل شيئًا .. هم أجبرونى .

صاح به (أدهم) فى صرامة :

ـ اصمت يا رجل ، وأحضر بعض الحبال أو الأسلاك .. هيا .

كررّ الرجل فى ذعر :

ـ أقسم لك إننى ..

انعقد حاجبا (أدهم) فى صرامة ، وهو يقترب منه ، ويتطلّع إلى عينيه مباشرة ، قائلاً بلهجة تجمّدت لها دماء الرجل فى عروقه :

ـ أنت عربى .. أليس كذلك ؟!

اتسعت عينا الرجل عن آخرهما ، وهو يحدّق فيه ، قبل أن يتمتم :

ـ بلى .

قال (أدهم) بنفس الصرامة :

ـ فلسطينى ؟

ازدرد الرجل لعابه فى صعوبة ، متمتمًا :

ـ بالتأكيد .

قال (أدهم) :

ـ قلها إذن يا رجل .. أنت عربى فلسطينى .

لم يدر الرجل لماذا تدفّق الحماس فى عروقه ، مع كلمات (أدهم) ، ولا لماذا شدّ قامته فى اعتداد ، قائلاً :

ـ نعم .. أنا عربى فلسطينى .

أشار (أدهم) بسبّابته ، قائلاً فى حزم :

ـ تعاون معنا إذن ، لنقيّد هؤلاء الأوغاد .

هتف الرجل :

ـ بالتأكيد .

ثم انطلق نحو منزله ، وعروقه تكاد تتفجّر ، من قوة ما تنبض به من حماس ونخوة ، فهتفت (راشيل) ، وهى تبرز من حيث كانت تختبئ :

ـ ماذا فعلت به ؟!

أجابها ، وهو يجذب الإسرائيليين إلى الداخل :

ـ لا شىء .. فقط أيقظت النخوة العربية فى أعماقه .

ردّدت فى دهشة :

ـ النخوة العربية ؟!

التفت إليها ، قائلاً :

ـ نعم .. شىء لا يدركه سوانا .

ثم التقط سمّاعة الهاتف ، وهى تتطلّع إلى الإسرائيليين الخمسة الفاقدى الوعى ، متمتمة :

ـ أعتقد أنك قد أفسدت غطاء (أديب الريس) إلى الأبد .

قال فى حزم ، وهو يضغط أزرار الهاتف :

- كان هذا سيحدث ، إن عاجلاً أو آجلاً .

ثم أضاف فى سخرية :

- كما أننى لست الشخص الذى أفسد غطاءه ..

أدركت ما يرمى إليه ، فقالت فى عصبية :

- لست مسئولة عن انطلاق رنين جهاز الاستدعاء ، فى تلك اللحظة بالذات ..

أجابها فى صرامة :

- بل أنت مسئولة بالتأكيد ، فعندما تختبئين ، ينبغى أن توقفى كل ما يمكن أن يكشف أمرك .

قالت فى حدة :

- فليكن أيها العبقرى .. سأنتبه إلى هذا ، فى المرات القادمة .

أجابها فى صرامة :

- لن تكون هناك مرات قادمة .

اتسعت عيناها فى ارتياع ، وهى تهتف :

- ماذا تعنى ؟!

أشار إليها بالصمت ، وهو يقول بالعبرية عبر الهاتف :

- أريد التحدث إلى (أديب الريس) .

همست فى عصبية :

- هل تتصل به فى (يافا) ؟

أشار إليها مرة أخرى فى صرامة ، وهو يقول عبر الهاتف :

- أخبره أننى صديق قديم .. اسمى (صموائيل) .. (أرنولد صموائيل) .

غمغمت فى عصبية :

- يا للنرجسية ! حتى أسماؤك المستعارة تبدأ بحرفى الألف والصاد .

رمقها بنظرة صارمة ، وهو يقول عبر الهاتف ، فى مرح مصطنع :

- هاى (أديب) .. أنا (صموائيل) .. لقد وصلت على التو إلى (تل أبيب) .. كم أتوق لرؤياك .. متى ستعود إلى هنا ؟! لقد أحضرت لك زجاجة خمر كبيرة من (أثينا) .

أجابه (أديب) فى مرح شديد ، وبذلك الصوت الغليظ الأجش :

- مرحبًا يا عزيزى (صموائيل) .. أنا أيضًا أتوق لرؤيتك بشدة .. انتظرنى .. سأحضر إليك على الفور ..

سأحصل على إذن بالانصراف المبكر ، من أدون (كوهين) ، وأنطلق إليك فورًا .. لا تبدأ فى شرب زجاجة الخمر ، حتى أصل إليك .

قالها ، وأطلق ضحكة عالية فظة ، سمعها كل من فى المصنع ، قبل أن ينهى المحادثة ..

وفى توتر ، قالت (راشيل) :

ـ هل تظنه سيتقبّل ما فعلته بمنزله ؟!

أجابها فى صرامة حازمة :

ـ (أديب) لن يعود إلى هنا أبدًا .

هتفت مبهورة :

ـ ربّاه ! هل تعنى أن ..

وصل صاحب المنزل فى هذه اللحظة ، واندفع إليه ، حاملاً كومة من أسلاك الكهرباء القديمة ، وهو يهتف فى حماس :

ـ لقد أحضرت كمية ضخمة ، تكفى لـ ....

بتر عبارته بغتة ، عندما وقع بصره على (راشيل) ، فى زيها العسكرى الإسرائيلى ، وتراجع بحركة حادة عنيفة ، تسبّبت فى سقوط ما يحمله ، وهو يهتف :

ـ لا .. أنا لم أفعل شيئًا .. إننى ..

أمسك (أدهم) معصمه فى قوة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ تماسك يا رجل .. إنها صديقة .

حدّقت (راشيل) فيه بدهشة مستنكرة ، فى نفس الوقت الذى حدّق فيه الرجل فيها ، وهو يردّد ذاهلاً :

ـ صديقة ؟!

قالت (راشيل) بالاسبانية فى حنق :

ـ إذن فأنت مصرّ على كشف غطائى أيضًا .

أجابها (أدهم) فى صرامة ، وبنفس اللغة :

ـ لقد انكشف بالفعل ، منذ ذهبت لزيارة (أديب) فى المصنع ، دون أن تحصلى على إذن مسبق .

ثم راح يقيّد الجنود الخمسة ، ويكمّم أفواههم فى إحكام ، وهو يضيف بنفس الصرامة :

ـ والآن لم يعد أمامك سوى الرحيل .

هتفت بأنفاس مبهورة :

ـ الرحيل ؟! ماذا تعنى ؟!

هتف صاحب المنزل ، فى هذه اللحظة ، فى فضول شديد :

ـ هل تتحدثان الإيطالية ؟!



وهوى على فك الرجل بلكمة مفاجئة ، ارتج لها كيانه كله ، فاتسعت عيناه عن آخرهما ..

اعتدل (أدهم) ، وتطلع إليه لحظة فى صمت ، قبل أن يضع يده على كتفه ، قائلاً :

ـ هل تعلم يا رجل .. إنك تحتاج إلى تغطية جيدة بالتأكيد ؟!

سأله الرجل فى دهشة :

ـ تغطية لماذا ؟!

أجابه (أدهم) ، وهو يتطلع إلى عينيه مباشرة :

ـ لتبرير موقفك .. أنت تعلم مثلى أن الإسرائيليين يحاصرون المنزل ، وعندما يشعرون بتأخر فريق التفتيش ، سيصعدون للبحث عنه حتمًا .

امتقع وجه الرجل ، وهو يقول :

ـ يا إلهى ! هذا صحيح .. وماذا سأخبرهم حينئذ ؟!

ابتسم (أدهم) ، وهو يجيب :

ـ أخبرهم أنك أيضًا ضحية .

قالها ، وهوى على فك الرجل بلكمة مفاجئة ، ارتج لها كيانه كله ، فاتسعت عيناه عن آخرهما ، ودارتا فى محجريهما فى عنف ، قبل أن يهوى فاقد الوعى ، فهتفت (راشيل) محنقة .

ـ لقد خدعته .

انحنى يقيِّد الرجل بدوره ، وهو يقول :

ـ لا يمكنك أن تتصورى كم سيشعر بالامتنان لهذا ، عندما يستعيد وعيه ، ويجد الإسرائيليين أمامه .

احنقها أنه على صواب مرة أخرى ، فلوَّحت بيسراها فى الهواء ، وهى تقبض على مدفعها فى قوة ، قائلة :

ـ حسن أيها العبقرى ، الذى لا يخطئ أبدًا .. قل لى الآن : كيف يمكننا الخروج من هنا ، والمكان كله محاصر ؟!

أجابها بابتسامة ساخرة :

ـ ليس هذا بالأمر العسير .

قالت فى حدة :

ـ كيف إذن أيها العبقرى ؟!

اعتدل واقفًا ، والتفت إليها ، قائلاً فى صرامة :

ـ اتركى لى هذا .

ثم أمسك كتفيها بغتة ، وهو يتابع بلهجة آمرة :

ـ المهم هو أن تنتقلى إلى خطة الطوارئ فورًا .

ردَّدت مبهوتة :

ـ خطة الطوارئ ؟!

أجابها فى حزم :

ـ نعم .. الخطة الاحتياطية .. الإجراء الذى ينبغى اتخاذه ، عندما تتعقَّد الأمور وينكشف أمرك أو يكاد .. كل عميل يحفظ هذا عن ظهر قلب .. أليس كذلك ؟!

غمغمت متوترة :

ـ بالتأكيد ، ولكن ..

قاطعها فى صرامة :

ـ لا يوجد لكن .. نفذى الأوامر على الفور .. لا وقت للعناد والمكابرة .. انطلقى من هنا إلى المنزل الاحتياطى .. هناك منزل احتياطى وشخصية بديلة .. أليس كذلك ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، وهى تبحث عما تقوله ، ثم لم تلبث أن هتفت بصوت مختنق جاف :

ـ وماذا عنك ؟!

تخلَّى عن كتفيها ، قائلاً :

ـ لا تشغلى نفسك بأمرى .. الأمور تعقَّدت بشدة ، حتى صار على كل منا أن يهتمَّ بأمره وحده .

هتفت معترضة :

ـ أأنت الذى يقول هذا ؟!

صاح بها فى صرامة ، وهو يتجه إلى المطبخ :

ـ نفذى الأوامر .

هتفت ساخطة ، وهى تتبعه :

ـ ليس قبل أن نخرج من هنا أيها العبقرى .

أشعل الموقد ، والتقط ورقة كبيرة ، أشعل النيران فى طرفها ، وهو يقول فى حزم :

ـ سنفعل بإذن الله .

ثم رفع الورقة المشتعلة إلى السقف ، مستطردًا :

ـ هل ترين تلك الأسطوانة الصغيرة ، المثبتة بالسقف .. إنها جهاز إنذار ضد الحريق ، ومهمته هى استدعاء رجال الإطفاء ، وإطلاق المياه فى المكان المحترق لحين حضورهم ، بمجرَّد التقاطه رائحة الدخان .

لم يكد يتمَّ عبارته ، حتى تفجَّرت المياه فجأة من جهاز إنذار الحريق ، فى نفس اللحظة التى انطلقت فيها صفارات الإنذار ، فى المبنى كله ..

وفى غضب ، هتفت (راشيل) ، وهى ترفع ذراعيها لتقى رأسها ذلك الماء المنهمر :

ـ رباه ! ستفسد شعرى تمامًا .

هتف بها ضاحكًا :

ـ إنه إنذار الحريق يا صغيرتى ، وهو يفسد ما هو أكثر أهمية من هذا .

صاحت ساخطة :

ـ ثيابى .. أليس كذلك ؟!

أشار بسَبابته ، مجيبًا :

ـ بل أعصاب الجميع .. إنها الغريزة التى يشترك فيها كل كائن حى .

ثم مال نحوها ، مستطردًا :

ـ الخوف من النار .

لم تكن كلمته قد انتهت بعد ، عندما بلغ مسامعهما ضجيج الهرج والمرج ، لسكان البناية والبنايات المجاورة ، الذين يهرعون فى ذعر إلى الشارع ، فى محاولة لاتقاء ذلك الحريق الوهمى ، فاعتدل (أدهم) ، وأشار بسَبابته ، قائلاً :

ـ بعدك يا آنستى .

تطلعت إليه فى دهشة بالغة ، قبل أن تدور على عقبيها ، وتندفع خارج المنزل ، هاتفة بالسكان المذعورين :

ـ هدوء أيها السادة .. هدوء .. التنظيم هو الشىء الوحيد ، الكفيل بإنقاذ أرواحكم الآن .. تمسكوا بالهدوء ، وتظاهروا بأنه مجرَّد اختبار حريق .. هيا .. سيروا فى صفين .. النساء والأطفال والعجائز أولاً .

كان الهرج والمرج يمتدّان من البناية إلى الطرقات المحيطة بها ، حيث راح رجال الجيش يتحركون فى توتر ، محاولين البحث عن فريق التفتيش ، فى حين تدافع الناس فى كل مكان ، وقد منعهم الخوف والاضطراب من اتخاذ مسار محدود ، فى حين ارتفع من بعيد صوت أبواق سيارات الإطفاء ..

ووسط كل هذا ، برز رجل قوى البنية ، ممشوق القوام ، هتف بقائد رجال القوات الخاصة فى صرامة :

ـ حاصروا المبنى ، واصنعوا نطاقًا آمنا حوله ، وأفسحوا الطريق لسيارات الإسعاف والإطفاء .. هيا .. أسرعوا .

التفت إليه قائد القوات الخاصة فى حدة ، وهو يهتف :

ـ ومن أنت بالضبط ، حتى تلقى لنا الأوامر على هذا النحو يا رجل .

أبرز الرجل هويته ، وهو يجيب فى صرامة :

ـ (دافيد بلو) .. (الموساد) .. والمسئول شخصيًا عن كل ما يحدث هنا .

حدّق الرجل فى الهوية ، التى اشتهرت باستحالة

تزويرها ، ثم قارن صورتها بالشخص الواقف أمامه ، قبل أن يؤدى التحية فى احترام ، قائلاً :

ـ كما تأمر يا أدون (بلو) .

وانصرف بسرعة لتنفيذ الأمر ، فى حين ارتسمت ابتسامة ساخرة ، على شفتى (دافيد) الزائف ، وهو يغمغم :

ـ عظيم .. كنت أعلم أن القناع الاحتياطى سيكفى ، ولن تكون هناك حاجة إلى تنكر متقن هذه المرة .

قالها ، واستدار يتجه نحو الجموع المزدحمة ، ثم لم يلبث أن غاب بينها ، وتلاشى وسط الزحام .. تلاشى تمامًا ..

★ ★ ★

انطلقت ضحكة (أديب) الفظة عالية مجلجلة ، فى أروقة ذلك المصنع فى (يافا) ، وهو يتجه إلى حجرة (كوهين) ، صاحب المصنع ، هاتفًا بصوته الخشن الأجش :

ـ مفاجأة يا أدون (كوهين) .. مفاجأة .

استقبله الرجل ببرود غير مألوف ، وهو يسأله :

ـ أية مفاجأة ؟!

قهقه (أديب) مرة أخرى ، قائلاً :

ـ صديقى (صموائيل) ، الذى طالما حدثتك عنه ، حضر اليوم من (أثينا) ، ومعه زجاجة خمر معتقة ، ويريد منى أن أهرع إليه على الفور ، و ....

قاطعه (كوهين) فى عصبية :

ـ لا إجازات .

لوّح (أديب) بذراعه كلها ، على نحو مبتذل ، وهو يقول :

ـ ومن تحدث عن الإجازات يا أدون (كوهين) ؟! كل ما أطلبه هو انصراف مبكر فحسب .. لقد أنجزت نوبة كاملة ، و ...

قاطعه (كوهين) فى صرامة أكبر ، وعصبية أشد :

ـ لا إجازات .

كان من الواضح أن الرجل يردد عبارات أمليت عليه ، على نحو ما ، مما يورثه عصبية شديدة ، يغص بها حلقه ..

ولم يكن (أديب) بحاجة إلى ذكاء فذ ، ليربط هذا بالتحذير الصارم ، الذى نقله إليه (أدهم) ، عبر قصة وصول (صموائيل) الزائف هذا ، والذى يعنى

أن أمره قد انكشف ، وعليه أن يغادر المصنع ، و(يافا) ، و(إسرائيل) كلها لو أمكن ، بأقصى سرعة ممكنة ..

وألا يعود إلى (تل أبيب) قط ..

مهما كانت الأسباب ..

ولأن شيئاً لم يعد يهمّ ، بعد انكشاف أمره ، فقد شدّ (أديب) قامته ، وألقى تلك الشخصية الفظة الخشنة خلف ظهره ، وتغيّرت ملامحه على نحو عجيب ، وهو يقول فى حزم :

ـ سأنصرف الآن يا أدون (كوهين) ، شئت أم أبيت .

اتسعت عينا (كوهين) ، فى ذعر مندهش ، ونهض من مقعده بحركة حادة ، أدّت إلى سقوط المقعد ، وهو يتراجع فى هلع ، قائلاً :

ـ لا .. لا يمكننى هذا .. لا يمكننى أن أسمح لك بالانصراف .

تقدّم (أديب) نحوه ، وأمسك سترته ، وألصقه بالجدار ، قائلاً فى صرامة مخيفة ، لم يعهدها أحد فيه من قبل :

ـ لماذا يا (كوهين) ؟! من طلب منك منعى من الانصراف ؟!

ارتجف اليهودى فى رعب هائل ، وهو يقول :

ـ أدون (أديب) .. أرجوك .. لقد أمرونى بهذا .. أنا مضطر .

صاح به (أديب) فى صرامة أكثر :

ـ من يا (كوهين) ؟!

هتف الرجل فى رعب :

ـ (ماروسكى) .. النقيب (موشى ماروسكى) .

ردَّد (أديب) فى توتر :

ـ (ماروسكى) .. ولماذا يفعل (ماروسكى) هذا ؟!

أجابه الرجل ، وهو يحاول التملُّص منه فى ارتياع :

ـ ربما بسبب تلك العسكرية ، التى أتت لزيارتك .

أمسك (أديب) معصمه ولواه فى قسوة ، وهو يسأله :

ـ ومن أخبره بأمرها ؟!

تأوَّه الرجل فى ذعر وألم ، هاتفًا :

ـ أنا .. أنا أخبرته .

قال (أديب) فى غلظة مخيفة :

ـ أنت ..

تفجَّرت دموع الرجل فى رعب ، وهو يهتف :

ـ لم أكن أقصد هذا يا أدون (أديب) .. أقسم لك .. هو الذى طلب منى أن أبلغه كل ما يحدث هنا .. لقد هدَّدنى بإغلاق مصنعى ، لو لم أفعل .. أقسم لك .

دخل قائد أمن المصنع حجرة (كوهين) ، فى تلك اللحظة ، وهو يقول :

ـ أدون (كوهين) .. لقد اتصل السيِّد (ماروسكى) ، و ....

بتر عبارته ، واتسعت عيناه فى دهشة بالغة ، أمام ذلك المشهد العجيب ، ثم لم يلبث أن التقط مسدسه من غمده ، هاتفًا :

ـ ما الذى يحد ...

قبل أن يتمَّ عبارته ، ارتفعت قدم (أديب) فى سرعة ، لتركل المسدس من يده ، ثم انطلقت قبضته كالقنبلة ، تحطم أنف (كوهين) ، الذى انطلقت منه شهقة مكتومة ، قبل أن يسقط فاقد الوعى ..

وفى غضب ، انقض قائد الأمن على (أديب) ، صارخًا :

ـ خيانة .. النجدة يا رجال .

تفادى (أديب) انقضاضته بانحناءة ماهرة ، ثم كال له لكمة قوية ، أعقبها بأخرى عنيفة ، وثالثة ساحقة ، ألقت الرجل خارج المكتب ، ليرتطم باثنين من رجاله ، هرعا لتلبية ندائه ..

وفى ذهول ، تطلع عمال المصنع إلى (أديب) ، الذى وثب خارج حجرة (كوهين) وثبة مدهشة ، وركل أحد الرجلين فى أنفه ، ثم دار حول نفسه فى خفة مذهلة ، ليركل الثانى فى أسنانه مباشرة ..

وفى اللحظة نفسها ، برز رجال (جولدمان) ، عند مدخل المصنع ، وانتزع أحدهم مسدسه ، وهو يصرخ :

ـ أوقفوا الخائن .

تبادل العمال نظرة ذاهلة أخرى ، وغمغم (أدهم) مبهورًا :

ـ الخائن ؟! (أديب) ؟!

كان (أديب) يثب ، فى تلك اللحظة ، من الطابق الثانى ، حيث مكتب (كوهين) ، إلى الطابق الأرضى ، الذى يحوى آلات المصنع الكبيرة ، ورجال (جولدمان) يعدون نحوه ، وهم يطلقون رصاصاتهم ..

وهبط (أديب) على قمة آلة ضخمة ، أصابت

إحدى الرصاصات طرفها ، ثم وثب منها إلى الأرض ، التى ارتطمت بها رصاصة أخرى ، بين قدميه مباشرة ، قبل أن يعدو نحو المخرج الخلفى بكل قوته ..

وكان المشهد أكثر وضوحًا من أن يحتاج إلى تفسير .. أى تفسير ..

وفى لحظة واحدة ، ودون اتفاق مسبق ، قفزت إلى رءوسهم فكرة واحدة ..

وفى اللحظة نفسها ، ربطوا ما بين (أديب) ، الذى عرفوه طوال السنوات الماضية ، وذلك النشيط الباسل ، الذى رأوه منذ ثانية واحدة ..

وفى آن واحد ..

وأيضًا بلا اتفاق مسبق ، انطلقت من حلوقهم جميعًا صيحة ..

صيحة واحدة ، ارتجفت لها قلوب رجال (جولدمان) ، وخاصة عندما اعترض حشد من العمال طريقهم ، وأحاط بهم الآخرون ، وكأنما يسعون لمنعهم من اللحاق بـ (أديب) ، فهتف أحدهم ، وهو يلوّح بمسدسه :

ـ ابتعدوا .. إنها قضية أمن دولة ، ولدينا تصريح بإطلاق النار بلا تردُّد .. ابتعدوا .

ورفع الثانى يده ، وأطلق رصاصتين فى الهواء ..

ولكن العمال لم يتحركوا من أماكنهم ..
ولم يتلاش الحزم والعزم من عيونهم ..
ومرة أخرى ، ارتجفت قلوب رجال (جولدمان) للموقف ..
ولثوان ، فكَّر بعضهم فى إطلاق النار على العمال ..
إلا أن لمحه من العقل جعلتهم يحجمون عن هذا ..
فمن الواضح أن الرجال مشتعلون إلى أقصى حد ..
وأنهم مستعدون للموت ، فى سبيل إنقاذ زميلهم ..
أو بمعنى أكثر دقة .. فى سبيل الاعتذار له ..
الاعتذار عن سنوات من الازدراء والاحتقار ، احتملها الرجل فى صبر وبسالة ، فى سبيل الهدف الذى نذر نفسه من أجله ..
فى سبيل الوطن ..
(فلسطين) ..
كان كل احتقارهم وازدرائهم له قد تحوَّل ، فى لحظة واحدة ، إلى موجة عارمة من الفخر ، والاعتزاز .. والولاء ..
كل هذا جعل حياتهم لا تساوى شيئًا بالنسبة لهم .. ما لم يذودوا عنه بها ..

وهذا يعنى أن الرصاصات ، مهما بلغ عددها ، لن تكفى لإزاحتهم جميعًا عن الطريق ..
ربما أطاحت بخمسة أو عشرة منهم ..
ولكنها ستحيل الباقين إلى وحوش كاسرة ..
وحوش قادرة على الفتك بجيش كامل ..
لذا ، فقد أعاد قائد الرجال مسدسه إلى غمده ، والتقط بدلاً منه جهاز الاتصال اللاسلكى ، وهو يصرخ فيه :
ـ الجاسوس يحاول الفرار من الخلف .. أوقفوه .
وقبل أن يصرخ بالمزيد ، انقضَّ عليه عمال المصنع ، وانتزعوا اللاسلكى من يده ، وألقوه أرضًا ، وراحوا يسحقونه بأقدامهم ، والرجل يصرخ :
ـ إننا رجال (الموساد) .. إننى أحذِّركم .
أما (أديب) ، فقد اندفع نحو المدخل الخلفى ، ووثب عبر آلة قديمة ، ملقاة هناك ، قبل أن يضرب القفل القديم بقدمه ، ثم يندفع خارج المكان ، و ...
« قف وإلا أطلقت النار .. »
صرخ أحد رجال (ماروسكى) بالعبارة ، وهو يعدو نحوه ، فقفز (أديب) جانبًا ، وتدحرج خلف عمود أسمنتى ، أصابته رصاصة الرجل ، قبل أن يجذب (أديب) ساق سرواله ، ثم يختطف مسدسًا

مخفيًا داخل غمد حول ساقه ، ويطلق منه النار ، هاتفًا :

- ابتعد أنت أيها الإسرائيلى .

أصابت الرصاصة الرجل مباشرة ، واقتلعته من مكانه ، لتلقى به ثلاثة أمتار إلى الخلف ، قبل أن يرتطم بالأرض فى عنف ، فى نفس اللحظة التى وثب فيها (أديب) من مكانه ، وانطلق يعدو نحو سيارة (كوهين) الكبيرة ، التى تقف فى مرآبها الخاص ..

ومن خلفه ، انطلقت رصاصات رجال (ماروسكى) و(جولدمان) ، التى لم تنجح فى اصطياده ، مع سرعته وخفته المدهشتين ، وهو يثب داخل السيارة ، ويلتقط سلسلة مفاتيح من جيبه ، مغمغمًا :

- من حسن الحظ أننى صنعت مفتاحًا لها خفية منذ عدة سنوات .

أدار المحرك فى سرعة ، والرجال يندفعون نحوه ، ورصاصاتهم تخترق زجاج السيارة الأمامى ، ومقدمتها ، فضغط (أديب) دواسة وقودها بكل قوته ، هاتفًا :

- أتعشم أن تكون هذه الألمانية بالمتانة التى يصفونها بها .

وثبت السيارة الألمانية إلى الأمام ، وإطاراتها تطلق صريرًا مخيفًا ، وانحنى (أديب) داخلها متفاديًا الرصاصات ، التى تنهمر فى غزارة ، واندفع بها نحو أحد الرجال ، فأطاح به فى عنف ، ثم قفز فوق جسد آخر ، دون أن يبالى بصرخة الرعب والألم التى أطلقها ، وانحرف بالسيارة ، على نحو يشفّ عن مهارة وتحكم مدهشين ، قبل أن ينطلق بها عبر بوابة المصنع كالصاروخ ..

وفى نفس اللحظة ، اندفع رجال (جولدمان) خارج المصنع ، وأحدهم يصيح فى غضب هادر :

- ستدفعون الثمن غاليًا .. عقوبة اعتراض رجال (الموساد) قاسية للغاية .

صاح به رئيسه :

- دعك منهم الآن ، ولنلحق بالجاسوس .

وإثر صيحته ، قفز الجميع إلى سياراتهم ، وانطلقوا خلف السيارة ، التى فرّ بها (أديب) ..

ومن خلفهم ، ارتسمت ابتسامات كبيرة على وجوه العمال ، وهتف أحدهم فى فخر :

- كنت أعلم أن عائلة (الريس) لا تضمّ الخونة والمارقين .

وهتف آخر :

ـ من يصدّق هذا ؟! (أديب) يخدع هؤلاء الأوغاد ، كل هذه السنين .

انعقد حاجبا ثالث ، وهو يقول :

ـ اخشى أن يكون الأمر كله مجرّد خدعة .

تبادل الجميع نظرة صامتة ، قبل أن يقول أكبرهم سنًا :

ـ هل يبدو لكم هذا أشبه بـ (أديب) ، الذى عرفناه فظًا مخمورًا ، يترنّح طوال الوقت ؟!

هتف معظمهم فى آن واحد :

ـ كلاّ .

صاح المعترض :

ـ كل خدعة يتمّ اتقانها لسبب ما ..

ثم مطّ شفتيه ، مستطردًا :

ـ لا يمكننى نسيان مشهد (أديب) ، وهو يحتضن زجاجة الخمر طوال الوقت .

قالها ، واندفع نحو سيارة أديب الصغيرة ، والتقط منها زجاجة الخمر ، ولوّح بها ، هاتفًا :

ـ هل نسيتم هذه ، لمجرّد أن ...

بتر عبارته بغتة ، وهو يحدّق فى السائل داخل

الزجاجة ، ثم انتزع غطاءها ، وأدنى فوهتها من أنفه لحظة ، قبل أن تتهلل أساريره ، ويلقيها بعيدًا ، وهو يقول فى حزم :

ـ إنه لم يشرب الخمر قط يا رجال .

ومرة أخرى ، تبادلوا جميعًا نظرة صامتة ..

وفى هذه المرة ، كانت النظرة تحمل الفخر ..

كل الفخر ..

أما (أديب) نفسه ، فقد انطلق بسيارة (كوهين) كالصاروخ ، عبر ذلك الطريق الواسع ، الذى يربط المنطقة الصناعية بمدينة (يافا) ، ثم لم يلبث أن انحرف عنه بقفزة مدهشة ، لينطلق نحو الغرب مباشرة ..

ومع مشهد غروب الشمس ، راح عقله يسترجع تاريخه فى عالم الجاسوسية ..

منذ تلقى تدريباته ، فى جهاز المخابرات العامة المصرى ، منذ ما يقرب من الثلاثين عامًا ، وحتى تلك اللحظة ، التى تشهد غروب شمس عمله الطويل ..

ذلك العمل ، الذى تحمّل من أجله الكثير ..

والكثير ..

والكثير ..

ولكن العجيب أنه ، حتى بعدما انكشف أمره ، لا يشعر بذرة واحدة من الندم ..

حتى وهو مطارد من فريق من رجال (الموساد) ، مازال يشعر بالفخر والارتياح ؛ لأنه أدى واجبه ..

من أجل وطنه ..

وأبناء وطنه ..

من أجل (فلسطين) ..

كان ينطلق بسرعة مخيفة ، بفضل السيارة القوية ، إلا أن سيارات رجال (الموساد) الرياضية الصغيرة اقتربت منه فى سرعة ، بفضل خفتها ومحركاتها القوية ، وعادت الرصاصات تنهال عليه كالمطر ، فتمتم ، وهو ينحرف بالسيارة فى حركة ماهرة مباغتة :

ـ يبدو أنك تشهد لحظات غروبك بالفعل يا (أديب) .

قالها ، وضغط دواسة الوقود أكثر وأكثر ..

وزأر محرك السيارة ، وهى تتقافز فوق الأرض غير الممهدة ، وهو يحاور ويناور بها فى مهارة ..

ولكن سيارات رجال (الموساد) أحاطت به ، فى مناورة تشف عن المهارة وحسن التنظيم ، وانهالت الرصاصات من كل صوب هذه المرة ، فتمتم :

ـ أظن أنه لا مفرّ من الاعتراف بمهاراتهم .. إنهم يحتاجون إلى إجراء غير متوقع .

وبحركة مباغتة ، ضغط فرامل سيارته ، فانخفضت سرعتها بغتة ، دون سابق إنذار ..

ولأن التوقف جاء مفاجئا بحق ، فقد ارتطمت إحدى السيارات الصغيرة بمؤخرة سيارته الكبيرة فى عنف ..

ثم وثبت فى الهواء ، على نحو مخيف ..

وقبل حتى أن تبدأ رحلة الهبوط ، مال (أديب) بسيارته فى عنف ، فارتطم بسيارة رياضية أخرى ، ودفعها جانبًا فى قوة ، ثم اندفع يتجاوزها ، وهو ينقل قدمه فى سرعة ، من دواسة الفرامل إلى دواسة الوقود ..

وفى نفس اللحظة ، التى انطلق فيها ، ارتطمت سيارة رجال (الموساد) بالأرض ..

وانفجرت فى عنف ..

ومع انفجارها ، وثبت سيارة (أديب) إلى الأمام ، ثم انحرفت إلى اليسار ، وارتطمت بسيارة ثالثة من سيارات رجال (الموساد) ، قبل أن تنطلق كالصاروخ ..

وبسرعة مدهشة ، انطلق رجال (الموساد) خلفه ، واستعادوا تنظيمهم ومناوراتهم ، وانطلقت رصاصاتهم كالمطر ..

وفجأة ، اشتعلت النيران فى مؤخرة سيارة (أديب) ، الذى هتف :

ـ رباه ! هذا لم يكن ضمن الخطة .

ثم انحرف إلى اليمين ، وانطلق نحو البحر مباشرة ..

وداخل سيارة القيادة ، هتف أحد رجال (الموساد) ، عبر اللاسلكى :

ـ الجاسوس يتجه نحو البحر ، وسيارته مشتعلة .. لقد حاولنا الإبقاء على حياته بقدر المستطاع ، ولكن هذا لم يعد باستطاعتنا الآن .. نريد تصريحًا بالتصرُّف ، وفقًا لمقتضيات الأمر .

أتاه صوت (جولدمان) شخصيًا ، وهو يهتف :

ـ تصرَّفوا وفقًا لمقتضيات الأمر .

تألَّقت عينا رجل (الموساد) ، وهو يقول فى ظفر :

ـ سمعًا وطاعة يا أدون (جولدمان) .

ثم استدار إلى زميله ، قائلاً :

ـ هيا .

أشار زميله بإبهامه ، قبل أن يفتح جزءًا من سقف السيارة ، ثم يبرز منه ، حاملاً مدفعًا صاروخيًا ، صوَّبه إلى سيارة (أديب) ، قائلاً :

ـ فليكن أيها الجاسوس .. عندما تصل إلى الجحيم ، أخبرهم أن الذى أرسلك إسرائيلى .

كانت سيارة (أديب) تقترب من البحر أكثر وأكثر ، بالنيران المشتعلة فى مؤخرتها ، عندما صوَّب إليها الإسرائيلى مدفعه الصاروخى فى إحكام ، على الرغم من الضوء الخافت بعد الغروب ، وهتف به زميله :

ـ أطلق .

وقفزت سيارة (أديب) فى الهواء ، فوق صخرة صغيرة ..

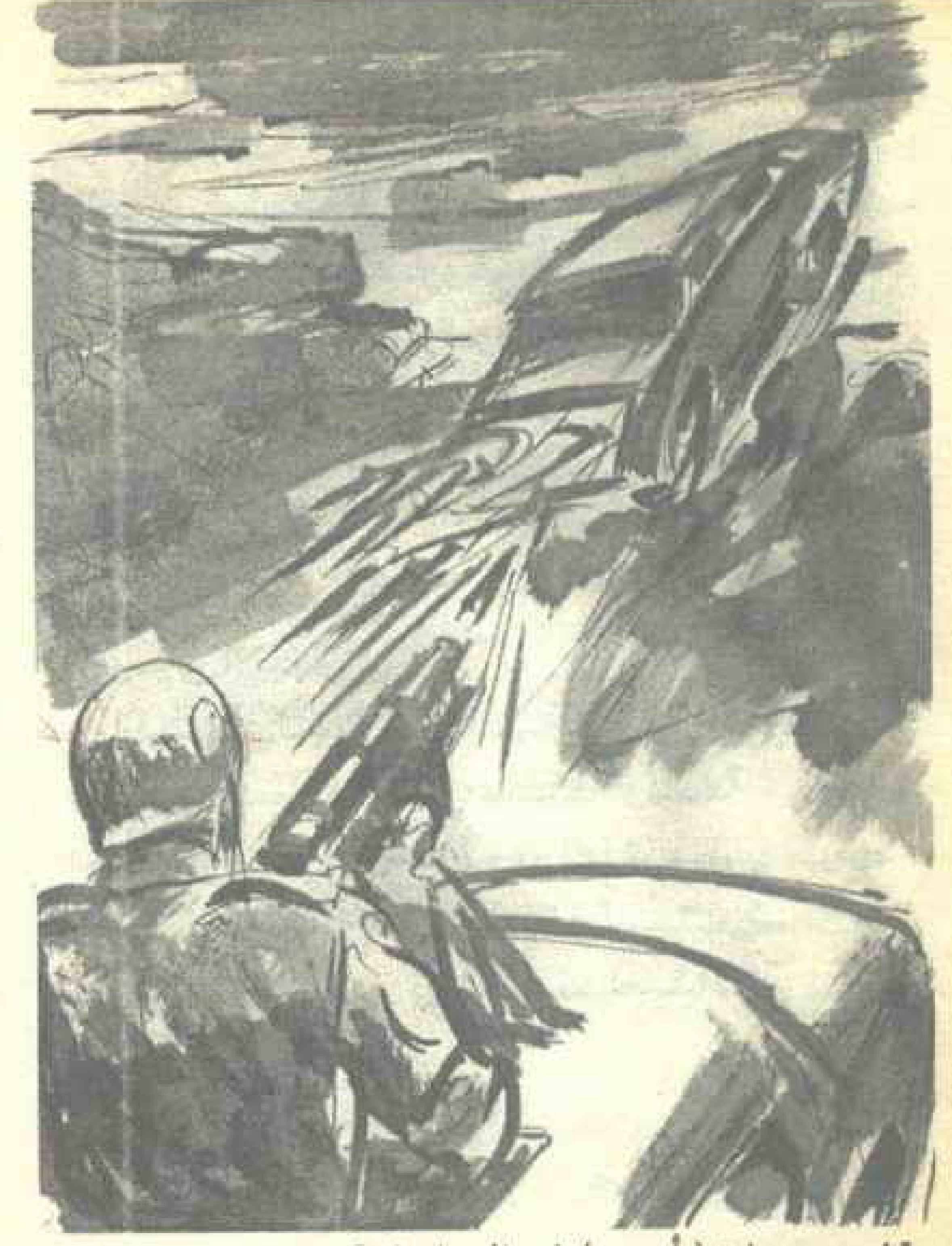
وانطلق الصاروخ ..

ودوى الانفجار ..

انفجرت السيارة الألمانية القوية فى عنف ، وتناثرت شظاياها على مساحة واسعة ، فتوقَّفت سيارات رجال (الموساد) ، وراح الرجال يراقبونها ، وهى ترتطم بالأرض ، وقد تحولت إلى شعلة من النيران ، على نحو يؤكد استحالة بقاء أى شخص داخلها على قيد الحياة ..

أى شخص .

* * *



وقفزت سيارة (أديب) فى الهواء فوق صخرة صغيرة ..
وانطلق الصاروخ .. ودوّى الانفجار ! ..

٧ ـ لمحة سياسية ..

ارتسمت ابتسامة هادئة ، على شفتى مدير المخابرات العامة ، وهو يدلف إلى مكتب وزير الخارجيةّ المصرى ، الذى نهض لاستقباله فى ترحاب ، وربَّت على كتفه فى مودَةّ وحرارة ، وهو يقول بابتسامةّ كبيرة :

ـ كيف حالك يا رجل ؟! مضت فترة طويلة ، منذ التقينا لآخر مرة .. كيف تسير الأمور معك .

اختلس مدير المخابرات نظرة سريعة ، على الرجل الجالس أمام مكتب الوزير ، قبل أن يجيب فى هدوء :

ـ حمدًا اللّه (العلى القدير) .

أشار وزير الداخليةّ إلى الرجل ، الذى نهض بدوره ، وبدا عليه الغضب والتبُرم ، والوزير يقدّمه إلى مدير المخابرات ، قائلاً :

ـ السّيد (مارون) .. السفير الإسرائيلى الجديد .. إنك تعرفه بالطبع .

ابتسم مدير المخابرات ، وهو يجيب فى هدوء :
- بالطبع .
دعاهما الوزير إلى الجلوس ، ثم عاد يجلس خلف مكتبه ، وهو يقول :
- سيادة السفير يحمل إلينا شكوى رسمية من حكومته .
رفع مدير المخابرات أحد حاجبيه وخفضهما ، وهو يردِّد :
- شكوى رسمية ؟!
اندفع السفير يقول فى غضب :
- رجالك يعبثون فى بلدى أيها المدير ، وهذا أمر غير مقبول ، على كل المستويات .
قال المدير فى بطء وحذر :
- رجالى ؟!
هتف السفير فى حدة :
- نعم .. رجالك .. رجال المخابرات المصرية الـ ....
أشار إليه وزير الداخلية المصرية بالتزام الهدوء ، وهو يلتفت إلى مدير المخابرات ، قائلاً :

- الحكومة الإسرائيلية تقدَّمت باعتراض رسمى ، على وجود أحد رجال المخابرات المصرية فى (إسرائيل) ، وبالتحديد فى (تل أبيب) ، ويؤكدون أنه السبب فى كل تلك الإجراءات الاستثنائية ، التى شاهدناها على شاشات التلفاز .
ابتسم مدير المخابرات فى شىء من السخرية ، وهو يقول :
- أهو السبب فى تصريحات رئيس وزرائكم الجديدة أيضًا ؟!
احتقن وجه السفير الإسرائيلى ، وهو يلوِّح بسبَّابته ، هاتفًا :
- أنت تعرف جيِّدًا من أدلى بتلك التصريحات .
أجابه مدير المخابرات فى هدوء مستفز :
- كلنا نعلم من أدلى بها .. العالم كله رآه يدلى بها ، على الهواء مباشرة .
هتف السفير فى حدة :
- السيِّد رئيس الوزراء لم يدل بتلك التصريحات الحمقاء .
سأله المدير فى خبث :

- أيها ؟!

عاد وجه السفير يحتقن ، وهو يقول فى حدة :

- اسمع يا رجل المخابرات .. أنا أفهم جيدًا أسلوبكم هذا .. لا تنس أننى أيضًا رجل مخابرات سابق .

قال المدير بنفس الخبث :

- وكيف لى أن أنسى .. ألم تكن ضابط (الموساد) ، المسئول عن سلامة ذلك الحفّار (*) ؟!

أخفى وزير الخارجية ابتسامته ، وهو يقول :

- هدوء أيها السادة .. أسلوب العنف فى الحوار لا يناسب طبيعة عملنا قط .

ابتسم مدير المخابرات ، قائلاً :

- الحوار نفسه لا يناسب طبيعة عملى يا سيادة الوزير .

(*) بعد حرب ١٩٦٧ م ، وبعدما وقعت (سيناء) فى قبضة العدو الإسرائيلى ، قام الإسرائيليون بشراء حفار كندى ، للتنقيب عن البترول هناك ، كوسيلة لإثبات سيطرتها الكاملة على المنطقة ، ولأن الأمر تحوّل إلى اختبار للسيادة ، اتخذ رئيس الجمهورية آنذاك قرارًا بتدمير ذلك الحفار ، وأسند المهمة إلى المخابرات العامة المصرية ، التى تعقّبته فى مهارة مدهشة ، ونجحت فى نسفه فى (أبيدجان) ، عشية وقفة عرفات ، مما جعل المهمة تحمل اسم (عملية الحج) .

لم يستطع وزير الخارجية إخفاء ابتسامته هذه المرة ، وهو يومئ برأسه ، قائلاً :

- أعلم هذا .

ثم اعتدل فى مجلسه ، واستطرد فى سرعة ، قبل أن يندفع السفير الإسرائيلى إلى مشاحنة جديدة :

- المهم الآن هو جوابك الرسمى على هذه الشكوى .

هزَّ مدير المخابرات كتفيه فى هدوء ، وهو يقول :

- القاعدة الأساسية تقول : « البيِّنة على من ادّعى » ، وهذا يعنى أنهم المسئولون عن إثبات ما يقولون ، وليس علينا نحن أن نثبت العكس .

قال السفير فى حزم :

- كنت أتوقَّع هذا الجواب ، لذا فقد أحضرت معى كل الوثائق اللازمة .

أجابه مدير المخابرات بنفس الهدوء :

- كم يسعدنى أن أراها .

ارتسم شىء من القلق ، على وجه وزير الخارجية المصرى ، وأسند وجهه على سبابته وإبهامه ، وهو ينقل بصره فى حذر بين الرجلين ، فى حين أخرج السفير الإسرائيلى من حقيبته ملفًا كبيرًا ، وهو يقول :

- رجلكم ، الذى يعيث فسادًا فى (تل أبيب) ، يحمل اسم (أدهم صبرى) ، وهو رجل مخابرات فذ ، يتميَّز بقدراته المذهلة ، وعلى رأسها براعته المدهشة فى التنكُّر ، بحيث لا يمكن كشف أمره ، أو تمييزه عن الشخص الأصلى قط .

ثم فرد أوراقه أمام الوزير ، مستطردًا فى انفعال :

- وهذه مجموعة من الصور له ، فى مواقف مختلفة .

انعقد حاجبا الوزير ، وهو يتطلَّع إلى الصور ، فى حين ألقى عليها مدير المخابرات نظرة هادئة ، وهو يقول :

- لست أرى بينها صورة واحدة في (تل أبيب) .

لوَّح السفير الإسرائيلى بيده ، قائلاً :

- ستحصل عليها قريبًا ، عندما نلقى القبض عليه ، ونلقيه خلف القضبان هناك .

ابتسم مدير المخابرات ، وهو يقول :

- مهلاً يا سيادة السفير .. قولى هذا لا يعنى أننى أعترف بوجود أحد رجال المخابرات المصرية فى (تل أبيب) .

ضرب السفير الصور بسبَّابته ، قائلاً فى حدة :

- وماذا لو أخبرتك أن لدى شهودًا ، رأوا هذا الرجل ، فى قلب (تل أبيب) ؟!

ألقى المدير نظرة أخرى لا مباليه على الصور ، قبل أن يسأل فى برود مستفز :

- ومن هذا الرجل ؟!

ازداد انعقاد حاجبى وزير الخارجية ، والسفير الاسرائيلى يهتف فى حنق :

- من هذا الرجل ؟! هل تسخر منى يا مدير المخابرات ؟! أنت تعرف جيدًا هذا الرجل .. العالم كله يعلم أنه رجل مخابرات مصرى .

أشار المدير بسبَّابته ، وهو يقول بنفس البرود المستفز :

- هل يمكنك أن تمنحنى دليلاً واحدًا على هذا ؟!

بُهت السفير الإسرائيلى للجواب ، فتراجع فى مقعده ، محدقًا فى وجه مدير المخابرات المصرى فى دهشة ، قبل أن يهتف فى حدة :

- ما الذى يعنيه قولك هذا ؟!

أجابه المدير فى هدوء شديد :

- كما سمعتنى تمامًا يا سيادة السفير .. إننى أريد دليلاً ماديًا واحدًا ، على أن هذا الرجل ، الذى تفرد أمامنا عشرات الصور له ، هو رجل مخابرات مصرى ، أو حتى رجل مخابرات ينتمى إلى أية دولة ، ترتبط معنا بصلة تعاون أو صداقة .

عاد وجه السفير الإسرائيلى يحتقن ، وهو يقول :

ـ أنت تعلم أنه أحد رجالك .. سجلاتك الرسمية تؤكد هذا حتمًا .

قال مدير المخابرات فى سخرية :

ـ أيعنى هذا أنكم ستتقدمون رسميًا ، بطلب الاطلاع على سجلات المخابرات العامة المصرية ؟!

احتقن وجه السفير الإسرائيلى أكثر وأكثر ، قبل أن يهتف فى حدة :

ـ منذ متى كانت هذه الأمور بحاجة إلى أدلة مادية ؟!

أجابه وزير الخارجية هذه المرة فى حزم :

ـ إنها دائمًا كذلك يا سيادة السفير .. قضايا التخابر والجاسوسية بالذات لا يمكن أن تنظر ، دون أدلة مادية حاسمة ، فهى ليست قضايا جنائية عادية ؛ لأن المتهم فيها ليس الجاسوس وحده ، وإنما الدولة التى خلفه أيضًا ، وهذا يجعلها أشبه بالقضايا الدولية ، إذ إنه من المستحيل ، وغير اللائق سياسيًا ودبلوماسيًا ، أن تتهم دولة أخرى بالعبث بأمنها ، دون أن تمتلك دليلاً ماديًا واحدًا على هذا .

ضغط الوزير كلمات الجزء الأخير من حديثه ، ليرسل المغزى منه إلى رأس السفير مباشرة ، فاحتقن

وجه هذا الأخير ثانية ، وهو يشير إلى الصور ، قائلاً :

ـ إذن فأنتم ترفضون الاعتراف بأن (أدهم صبرى) رجل مخابرات مصرى .

مطّ وزير الخارجية شفتيه ، وقلب كفه ، وهو يقول :

ـ هذا أمر لا يخصنى أبدًا ، فأنت تعلم أنه لا توجد صلة رسمية ، بين وزارة الخارجية والمخابرات العامة ، فالأخيرة تخضع للسيد رئيس الجمهورية مباشرة .

أما مدير المخابرات ، فقد شبك أصابع كفيه أمامه ، وهو يقول بابتسامة كبيرة هادئة ، للغاية :

ـ لم أسمع به فى حياتى قط .

قال السفير فى غضب :

ـ هكذا ؟!

ثم نهض يلملم أوراقه ، وهو يقول فى غضب مكتوم ، حاول إخفاءه خلف وجه دبلوماسى جامد :

ـ فليكن .. سأبلغ ردكم الرسمى لحكومتى ، ولتر ما عليها أن تتخذه بشأنه .

نهض الوزير يصافحه ، قائلاً فى جدية واهتمام :

ـ سنرسل ردًا رسميًا لحكومتك يا سيادة السفير ، وسنبلغهم استعدادنا التام للتعاون معهم ، عندما يصلنا الدليل الرسمى المطلوب .

عضَّ السفير شفتيه غيظًا ، وهو يقول :

ـ أشكر لكم تعاونكم يا سادة .

ثم استدار يصافح مدير المخابرات ، مستطردًا .

ـ بشدة .

اتسعت ابتسامة مدير المخابرات ، وبدت أشبه بضحكة ساخرة ، وهو يقول فى هدوء :

ـ على الرحب والسعة دائمًا :

صحب وزير الخارجية السفير الإسرائيلى إلى الخارج ، وتبادل معه حديثًا قصيرًا ، قبل أن يصافحه فى حرارة ، ثم عاد إلى مدير المخابرات ، متسائلاً فى لهفة :

ـ لا تقل لى : إن ذلك الذى أدلى بالتصريح المتفتّح ، الذى أدهشنا جميعًا ، لم يكن بالفعل رئيس الوزراء الإسرائيلى .

ابتسم مدير المخابرات ، قائلاً :

ـ لم يكن هو .

ارتفع حاجبا الوزير فى دهشة ، لم تلبث أن تحولَت إلى ضحكة عالية ، وهو يربُت على كتف مدير المخابرات ، قائلاً :

ـ يبدو أن (أدهم صبرى) هذا لن يتوقف عن إبهارى ، منذ كنا فى العشرين من العمر .

ابتسم المدير ، قائلاً :

ـ ولن يتوقف عن إبهارنا أيضًا .

ثم استعاد جديته واهتمامه ، وهو يستطرد متسائلاً :

ـ ولكن ماذا ستفعل مع الحكومة الإسرائيلية .. أعنى من الناحية الرسمية ؟!

هزَّ الوزير كتفيه ، وقال :

ـ إنهم خبراء فى التلاعب بالقانون .. دعهم يدفعون الثمن بالسلاح نفسه .

ثم صمت لحظة ، قبل أن يقول :

ـ هل تعلم ؟! أكثر ما أخشاه الآن ، هو أن يحصلوا بالفعل على الدليل المادى الذى طلبناه .

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى قلق شديد :

ـ على (أدهم) .

ولم يعلّق مدير المخابرات على عبارته ، وإنما انعقد حاجباه فى شدة ، وران عليهما صمت تام ..

صمت مهيب ..

ورهيب ..

★ ★ ★

لم يتوقف قلب (راشيل) عن الارتجاف لحظة واحدة ، منذ افترقت عن (أدهم) ، عند تلك البناية ، التى يقيم فيها (أديب) ..

لقد انطلقت على الفور بسيَارتها العسكرية ، عائدة إلى منزلها ، لتعدم بعض الأوراق المهمة ، والمعدَات الرئيسية ، قبل أن تبدأ خطة الطوارئ الاحتياطية ..

وبسرعة ، راح عقلها يسترجع تفاصيل الخطة الاحتياطية ، التى لقَنها إياها رجال المخابرات المصرية ، منذ أكثر من سبع سنوات كاملة ..

كل ما عليها هو أن تصبغ شعرها بلون داكن ، وتبدل لون عينيها بعدسات لاصقة ملوَنة ، وستصبح نسخة طبق الأصل من (ليونا باتيسرى) ، البرازيلية الحسناء التى تحتفظ بصورتها ، منذ سلمها إياها المقدَم (حازم) ، فى مكتب المخابرات المصرية فى (روما) ..

ثم عليها أن تنتقل إلى المنزل الاحتياطى ، الذى تحفظ عنوانه عن ظهر قلب ..

وباتصال هاتفى سريع ، ستقوم (ليونا) الأصلية برحلة سياحية قصيرة إلى (تل أبيب) ، وعندما

تصل إليها ، ستسلمها جواز سفرها ، لتغادر به (إسرائيل) ، دون أن يشكَ فى أمرها أحد أما (ليونا) الحقيقية ، فما إن تتأكد من رحيلها ، حتى تهرع إلى أقرب مركز شرطة سياحية ، وتتقدَم ببلاغ رسمى عن فقد جواز سفرها ..

ستكون هناك تحقيقات واستجوابات ، وأسئلة سخيفة كثيرة ..

ولكن (ليونا) ستستعين بسفير بلدها ..

وسيتم التحقَق من شخصيتها ..

ولن يجد الإسرائيليون دليلاً واحدًا لإدانتها ..

وهذا يعنى أنه ، طال الزمن أم قصر ، فستعود بدورها إلى موطنها ، بوثيقة سفر رسمية من سفارتها ..

على الرغم من الإسرائيليين ..

انطلق رنين جهاز الاستدعاء للمرة الخامسة ، منذ استقلَت سيارتها (الجيب) ، فانعقد حاجباها فى حنق ، وهى تقول :

ـ لن يجيبكم أحد أيها الأوغاد .

ثم انتزعت جهاز الاستدعاء من حزامها ، وألقته من نافذة السيارة فى حنق ..

وفى توتر ، زادت من سرعة السيارة ، وهى تتجه إلى منزلها ..
كان من المحتم أن تمَر به أوَلاً ، على الرغم من أن (أدهم) قد حَذرها من العودة إليه ، مهما كانت الأسباب ..
وربما كان على حق فى حذره هذا ..
ولكن كيف تترك خلفها كل هذه الأوراق والوثائق ؟!
ينبغى أن تعترف بأنها قد أخطأت كثيرًا ..
لم يكن من الصواب أبدًا أن تحتفظ بكل هذه الأشياء ..
كل ما تلقته من تدريبات ، كان يؤكد حتمية التخلُص منها أوَلاً فأوَلاً ..
ولكن يبدو أن نجاحها المفرط ، وطول فترة وجودها داخل (إسرائيل) قد أنسياها ما ينبغى أن تتحلى به من حرص وحذر ..
وها هى ذى تدفع الثمن ..
كل ما تعتمد عليه ، فى عودتها إلى منزلها ، فى مثل هذه الظروف ، هو أن رجال (الموساد) لا يمكن أن يتحركوا بهذه السرعة ، فى مثل هذا الموقف ..
إنهم منشغلون تمامًا بالسعى خلف (أدهم) ، وسيرجئون حتمًا عملية مطاردتها ..

وكل ما تحتاج إليه هو ساعة واحدة ..
بل نصف الساعة ..
عشرون دقيقة فحسب ..
إنها حتى لن تفحص الأوراق والمستندات ..
ستتخلَص منها كلها بلا استثناء ..
وبأسرع ما يمكنها ..
بلغت منزلها ، فى تلك اللحظة ، فأوقفت سيارتها أمامه ، وقفزت منها فى خفة ، ثم اندفعت إليه ، وهى تتلفت حولها فى حذر متوتر ..
كل شىء يبدو على ما يرام ..
لا جنود حول المنزل ..
أو سيارات عسكرية ..
أو حتى رجال مراقبة سرية ..
إنها على حق إذن ..
لقد تحركت أسرع من الجميع ..
وستتمَ عملها أيضًا ، أسرع من الجميع ..
راحت تتحرَك فى توتر داخل المصعد ، وهو يرتفع بها إلى الطابق التاسع حيث تقيم ، وعقلها يسترجع تحذير (أدهم) ألف مرة ، قبل أن تغمغم فى عصبية شديدة :

- إننى لست مضطرة لطاعته .. إنه ليس ضابط الحالة الخاص بى ، على أية حال(*) ..

كانت عصبيتها تتزايد ، كلما اقتربت من شقتها ، حتى بلغت ذروتها وهى تدسّ المفتاح فى ثقب الباب ، وتديره ، ثم تدلف إلى الشقة فى سرعة ، و...

« عظيم .. إننا لم ننتظرك كثيرًا .. »

انتفض جسدها فى عنف مع العبارة ، وقفزت إلى الخلف فى حدة ، عندما أضيئت الردهة كلها دفعة واحدة ، على نحو أغشى بصرها لحظة ، رفعت خلالها مدفعها الآلى ، هاتفة :

- من أنت ؟!

لم يكد هتافها يكتمل ، حتى انقضّ عليها رجلان من الخلف ، فقيّد أحدهما ساعديها بذراعيه ، فى حين انتزاع الثانى مدفعها الآلى من يدها ، أو كاد ،

(*) ضابط الحالة : هو رجل المخابرات ، المسؤل مسئولية كاملة عن عملية ما ، أو عميل ما ، فهو الذى يتابعها منذ البداية ، وحتى النهاية لو أمكن ، وتعود أهميته إلى متابعته المستمرة للعميل والعملية ، بحيث يصبح بإمكانه استنتاج أو استنباط كل الخطوات القادمة ، كما يمكنه تحديد ما إذا كان بإمكان العميل الإقدام على خطوة ما ، أو تطوير المهمة ، فى زمن محدد .

ولقد انطلقت منه بضع رصاصات بالفعل ، استقرّت كلها فى سقف الردهة ، قبل أن يجذب الرجل الثانى المدفع من يدها فى قسوة ، ويهوى على فكها بلكمة قاسية ، هاتفًا :

- أيتها اللعينة !

قاومت فى شدة ، للإفلات من الذراعين القويتين ، اللتين تحيطان بها ، وعيناها تتكيفان بسرعة مع الإضاءة ..

« لا داعى للمقاومة .. لقد انكشف كل شىء .. »

وفى مرارة ، عضّت شفتيها ، وهى تتطلّع إلى (بن عازار) ، المساعد الأوّل لـ (دافيد بلو) ، وهو يقف بين ثلاثة من الرجال ، يصوّبون إليها مسدساتهم ، و(بن عازار) يكمل فى صرامة :

- لقد راجعنا ملفك كله على الكمبيوتر ، وتوصّلنا إلى نقطة الضعف فيه لأوّل مرة .

ثم شدّ قامته ، وهو يضيف فى حزم :

- وأعتقد أننا نرغب فى التحدث إليك كثيرًا .

وانعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يكمل :

ـ وتصويد ..

وتوقَّفت (راشيل) عن المقاومة ، وهى تتطلَّع إلى الجميع فى يأس ومرارة ، وعقلها يبكى ندمًا ، ويلعن عنادها ألف مرة ..

ففى هذه المرة ، كما فى كل المرات السابقة ، كان (أدهم) على حق ..

على حق تمامًا ..

للأسف ..

★ ★ ★

فرك (إفرام ياهو) كفيه فى توتر شديد ، وهو يتحرَّك فى عصبية ، داخل القسم الطبى الخاص ، فى البيت الكبير ، قبل أن يسأل الطبيب فى حدة :

ـ كيف حاله الآن ؟!

هزَّ الطبيب رأسه فى عصبية ، قائلاً :

ـ لقد نجا بأعجوبة .. قلبه كاد يتوقَّف بالفعل ، لولا الصدمات الكهربية ، التى أنعشته فى اللحظة الأخيرة .

ثم زفر فى توتر شديد ، قبل أن يستطرد :

ـ لقد تصوَّرت فى القبو ، أنه قد لقى مصرعه بالفعل .

صاح (إفرام) فى وجهه :

ـ وما وظيفتك إذن ؟! لماذا أسندنا إليك هذا العمل ؟! أليست مهمتك أن تتيقَّن من أن ما نفعله بهم لن يقتلهم قط ؟!

هتف الطبيب محنقًا :

ـ وهل قبلت هذا العمل راضيًا ؟! هل خيَّرتمونى بين الرفض والقبول ؟!

لقد تم استدعائى من المستشفى المركزى ، وتكليفى هذا العمل القذر ، وعندما أبديت استنكارى ، أخبرتمونى صراحة أنه ليس أمامى سوى القبول ، أو يتم اعتقالى ، بتهْمة عدم التعاون مع الأمن القومى الإسرائيلى .. هل تذكرون هذا ؟!

جذبه (إفرام) من معطفه فى خشونة ، قائلاً :

ـ نعم .. نذكره يا هذا ، والعرض ما زال قائمًا ، بالشروط نفسها .. إما أن تتعاون معنا ، أو يتمّ اعتقالك .

احتقن وجه الطبيب فى شدة ، وهو يخلِّص معطفه من يد (إفرام) ، هاتفًا :

ـ فليكن يا أدون (إفرام) .. فليكن ..

ثم عدَّل هندامه فى عصبية زائدة ، وهو يستطرد :

ـ فى المرة السابقة لم يكن الخيار منطقيًّا ؛ لأننى

لم أكن أعلم ما الذى سيحدث ، إذا ما قبلت أو رفضت عرضكم ، أما الآن ، وبعد أن اختبرت الأمر بنفسى ، طوال عشر سنوات كاملة ، فأنا ..

وانفجر فجأة فى غضب هادر ، مستطردًا :

ـ فأنا أفضل الموت .

انتقل الاحتقان إلى وجه (إفرام) ، وهو ينقضّ عليه ، هاتفًا :

ـ أيها الـ ....

قاطعه فجأة صوت صارم ، يقول :

ـ ما الذى يحدث هنا بالضبط ؟!

امتقع وجه (إفرام) ، فى حين هتف الطبيب فى لهفة ، كمن وجد مخرجًا من حجرة ضيقة تشتعل باللهب :

ـ أدون (جولدمان) .

استدار (إفرام) فى سرعة إلى (جولدمان) ، قائلاً :

ـ هذا الرجل يرفض تنفيذ الأوامر يا سيِّدى ، و ...

قاطعه (جولدمان) فى غضب صارم :

ـ دعك من هذا الرجل ، ومن كل السخافات الأخرى يا (إفرام) ، وأجب سؤالى : ما الذى يحدث هنا ؟! ما الذى فعلته بالسيِّد (قدرى) ؟!

أجاب (إفرام) فى توتر شديد :

ـ إننى أنفذ الأوامر فحسب يا أدون (جولدمان) .. لقد طلبوا انتزاع المعلومات منه ، ولما كانت الوسائل المعتادة لم تحقق نجاحًا ، فقد ..

قاطعه فى غضب هادر :

ـ فقد ماذا يا (إفرام) ؟! فقد انتقلت إلى المرحلة الثانية .. أليس كذلك ؟! الشىء الذى أغفلت ذكره أيها الحقير ، هو أنك قد فعلت هذا بعد ثمان وأربعين ساعة فحسب .. أهذا ما تقتضيه الأوامر يا (إفرام) ؟!

هزّ الرجل رأسه فى قوة ، هاتفًا :

ـ لقد سخر منا يا أدون (جولدمان) .

لوَّح (جولدمان) بسبَّابته فى وجهه ، صائحًا :

ـ آه .. سخر منك .. هذا هو السبب الحقيقى إذن أنه قد سخر منك .. لقد خدعك ، فقرَّرت الانتقام منه ... مجرَّد انتقام شخصى يا (إفرام) .. انتقام شخصى ، كاد يفقدنا أكبر غنيمة حصلنا عليها من المصريين ، منذ حرب يونيو ١٩٦٧م .. أهذا ما تعلّمته هنا ؟! أهكذا ينبغى أن يفكر ضابط فى (الموساد) ؟! فى مجرَّد انتقام شخصى ؟!

احتقن وجه (إفرام) فى شدة ، وهو يتمتم :

ـ أدون (جولدمان) .. إننى ..
قاطعه هذه المرة ، صائحًا :
ـ لقد أخطأت كثيرًا يا (إفرام) .. أخطأت عندما تركت (قدرى) فى حجرته ، دون أجهزة مراقبة ، وأنت تعلم أنه صاحب أبرع وأمهر أصابع فى العالم كله .. وأخطأت عندما حاولت تعذيبه ؛ للحصول على المعلومات ، وأنت تدرك أننا لم نبذل كل ما بذلناه ، لاحضاره إلى هنا ؛ لمجرَّد استخدامه كطعم للإيقاع بـ (أدهم صبرى) ، وإنما للاستفادة بأصابعه الذهبية أيضًا .
هتف (إفرام) فى عصبية :
ـ هذا الرجل لن يتعاون معنا أبدًا .
ـ صاح به (جولدمان) :
ـ ومن أدراك ؟!
هتف :
ـ لقد اختبرت هذا بنفسى .
قال (جولدمان) فى غضب :
ـ خلال ثمان وأربعين ساعة فحسب ؟! يا لك من غبى !
ثم شدَّ قامته ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وهو يضيف فى صرامة شديدة :

ـ ليس هذا ما تتعلمه فى (الموساد) يا رجل .. ليس هذا ما تحيا من أجله (إسرائيل) كلها .. هل تعلم لماذا نتفوَّق على العرب دائمًا ؟! لأننا أبعد نظرًا منهم بكثير .. نحن نخطط لقرن قادم ، وهم ينظرون تحت أقدامهم فحسب .. لقد أحضرنا (قدرى) ؛ لأننا نريد الاستفادة من عبقريته وأصابعه الذهبية .. وكنا ندرك جيِّدًا أنه سيقاوم .. وسيرفض فى عنف وشراسة ، وسيأبى أن يتعاون معنا ، مهما كانت الأسباب .
غمغم (إفرام) فى عصبية :
ـ وهذا ما يفعله .
قال (جولدمان) :
ـ وما سيظلّ يفعله لفترة طويلة قادمة ، حتى تنهار مقاومته ، بعد شهر ، أو شهرين ، أو حتى عام كامل ، لو أنه يحتمل ، ولكننا فى النهاية سنظفر به ، وبمهاراته ، وقدراته ، وسنسخرها لخدمتنا .
قال (إفرام) فى حدة :
ـ وماذا لو أنقذه (أدهم صبرى) قبلها ؟!
انعقد حاجبا (جولدمان) فى شدة ، واحتقن وجهه ، وهو يقول :

- وكان هذا هو الخطأ الأخير يا (إفرام) .

وعاد يشدّ قامته ، مستطردًا فى صرامة آمرة :

- إننى أعفيك من المهمة كلها ، وأحيلك إلى التحقيق ؛ لتفسير ما أقدمت عليه ، دون الرجوع إلى رؤسائك ، مما عرَّض عملية كاملة للفشل .

وامتزجت عصبيته بلمحة من السخرية ، وهو يضيف :

- حاول أن تتحجَّج عندئذ بسخريته منك .

واستدار يغادر الحجرة كلها ، دون أن يضيف حرفًا واحدًا ، تاركًا (إفرام) خلفه ، وقد امتقع وجهه حتى كاد يحاكى وجوه الموتى ، وهو يحدِّق فى الباب ، الذى خرج منه هو منذ لحظات ، قبل أن يلتفت إلى الطبيب ، قائلاً فى شراسة :

- فيم تحدِّق ؟!

حاول الطبيب أن يخفى ابتسامته الشامتة ، وهو يقول :

- إننى هنا لتأدية واجبى فحسب ، و ....

قاطعه (إفرام) فى غضب هادر :

- اغرب عن وجهى .

هتف الطبيب ، فى دهشة مستنكرة :

- أغرب عن وجهك ؟! ولكننى هنا فى ...

قاطعه فى غضب أكثر :

- قلت : اغرب عن وجهى .

مطّ الطبيب شفتيه فى غضب ، وهو يتمتم :

- فليكن .. سأورد هذا فى تقريرى .

صرخ فيه (إفرام) :

- أورده فى تقريرك ، أو حتى فى التوراة نفسها(*) المهم أن تغرب عن وجهى الآن .. هل تفهم ؟! الآن .

مطّ الطبيب شفتيه مرةً أخرى ، وهو يتمتم :

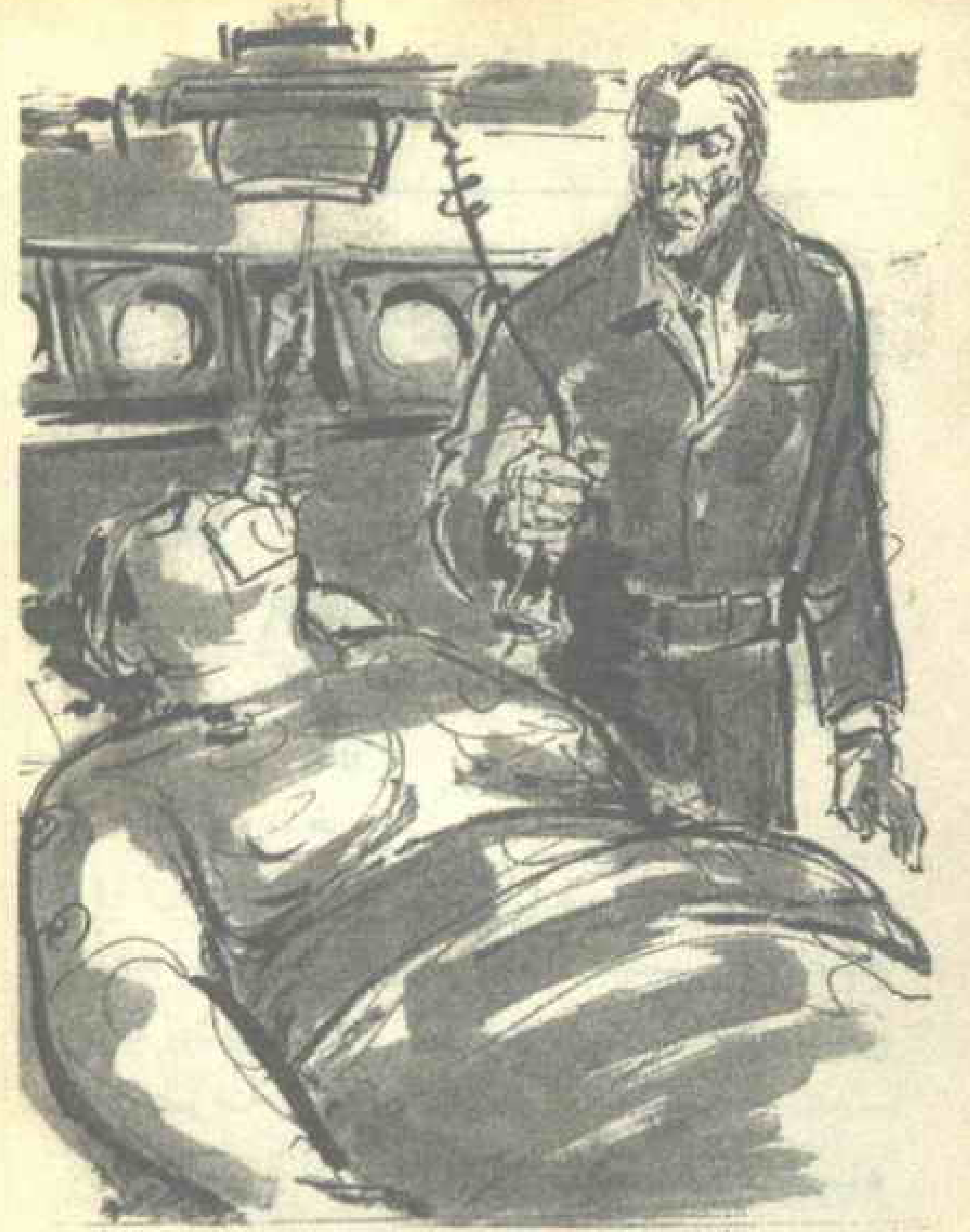
- نعم .. أفهم ..

قالها ، وغادر الوحدة الطبية الخاصة فى حنق وسخط بالغين ، وهو يهمهم بكلمات غير مفهومة ، فركل (إفرام) الباب خلفه فى حدة ، صائحًا :

- اذهب إلى الجحيم .

ثم التفت إلى (قدرى) ، الراقد على فراش المرض ، وقد غاب عن الوعى ، واتصلت به عشرات الأسلاك والأنابيب الرفيعة ، وهتف :

(*) التوراة : كتاب الله (سبحانه وتعالى) المقدس ، المنزّل على النبى (موسى) ، ولقد أتى ذكره فى القرآن الكريم عدة مرات ، وهو مصدر الكثير من الإسرائيليات ، ولقد تمت ترجمته لأول مرة عن العبرية ، فى القرنين الثالث والرابع للهجرة .



ثم جذب أحد الأسلاك الأساسية من جسده مستطرداً :
ـ وبأسرع وسيلة .. انطلق أزيز حاد ! ..

ـ أنت أيضًا ستذهب إلى الجحيم .. لقد سخرت منى ، وعرَضتنى بعنادك لكل ما أنا فيه الآن .

وصمت بضع لحظات ، وهو يتطلّع إلى (قدرى) ، قبل أن يغمغم فى غضب وحشى :

ـ نعم .. ستذهب إلى الجحيم .

ثم جذب أحد الأسلاك الأساسية من جسده ، مستطردًا :

ـ وبأسرع وسيلة ممكنة .

انطلق أزيز حاد ، من أحد أجهزة المراقبة الطبية ، ليعلن توقّف ذلك العامل الحيوى ، فتحرّكت يد (إفرام) فى سرعة ، لتغلق جهاز المراقبة ، وهو يضيف فى سخرية عصبية شرسة :

ـ ولا تخبرهم هناك أنه أمر شخصى .

ثم غادر الحجرة كلها ، وأغلق بابها خلفه بمنتهى الحرص ، وعيناه تحملان ضحكة كبيرة ..

ضحكة شامتة ..

وظافرة .

★ ★ ★

٨ـ السـقوط ..

« منتصف الليل فى (تل أبيب) .. »

نطق المساعد الأوَّل لمدير المخابرات المصرية العبارة ، وهو يتطلَّع إلى ساعته فى اهتمام ، قبل أن ينقل بصره إلى المدير ، الذى فرك كفيه فى شىء من التوتر ، قائلاً :

ـ عظيم .. الإسرائيليون لم ينجحوا فى الظفر بـ (ن ـ ١) ، حتى هذه اللحظة ، مما يعنى أن كل شىء يسير على ما يرام .

قال مساعده الآخر :

ـ ولكن إجراءات الخطة (أ) ما زالت مستمرة ، وجنونهم يتضاعف فى كل دقيقة تمضى ، خاصة وأنهم قد نبشوا كل شبر فى المدينة تقريبًا ، وبمنتهى الدقة والصرامة ، دون أن يوقعوا به .

قال المدير ، وهو يتطلَّع إلى خريطة كبيرة لميناء (تل أبيب) :

ـ إنها مسألة وقت فحسب .

ثم رفع عينيه إلى مساعده الأوَّل ، متسائلاً :

ـ هل وصل (ماجد) و(أيمن) إلى مواقعهما ؟!

أومأ مساعده الأوَّل برأسه ، مجيبًا :

ـ إنهما فى (تل أبيب) بالفعل الآن .

فرك المدير كفيه مرة أخرى ، وهو يغمغم :

ـ عظيم .

وعاد يتطلَّع إلى خريطة (تل أبيب) فى اهتمام ، قبل أن يتساءل :

ـ ترى هل يمكن أن يكشف الإسرائيليون أمرهما ؟!

هزَّ مساعده الأوَّل رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ مستحيل يا سيادة المدير ! أنت تعلم أن كليهما وُلِدَ من أب مصرى وأم أجنبية ، وكلاهما ورث ملامحه الأوروبية عن والدته ، وانتمائه القوى لـ (مصر) عن أبيه ، ثم إن كليهما حصل على جنسية أمه ، إلى جوار جنسيته المصرية(*) ، وعندما تقدَّما

(*) (مصر) واحدة من الدول القليلة ، التى تسمح لمواطنيها بالاحتفاظ بجنسيته المصرية ، إلى جوار أية جنسية أخرى يحصل عليها ، مما يطلق عليها اسم (الجنسية المزدوجة) ، وهذا يمنحه كافة حقوق المواطنة للجنسيتين معًا .

بطلب الهجرة إلى (أمريكا) ، كان هذا باعتبارهما مواطنين أوروبيين ، وليسا مصريين ، وهذا يعنى أن التحريات الإسرائيلية ، مهما بلغت ، لن تكشف أمرهما أبدًا .

أومأ مدير المخابرات برأسه في بطء ، وهو يردِّد :

ـ عظيم ... عظيم .

تبادل مساعدوه نظرة صامتة ، قبل أن يسأله أحدهم في حذر :

ـ هل قدَّم السفير الإسرائيلى أية اعتراضات أخرى يا سيادة المدير .

التفت إليه المدير ، قائلاً :

ـ نتعشَّم ألا يفعل .

قال آخر ، فى شيء من الحماس :

ـ لن يمكنهم إثبات أن سيادة العميد (أدهم صبرى) ضابط مخابرات مصرى قط .

أومأ المدير برأسه موافقًا ، وهو يقول :

ـ لا توجد فى الدنيا كلها وسيلة لإثبات هوية ضابط مخابرات ، سوى اعتراف دولته بذلك ، عندما ترغب فى استعادته(*) .

(*) حقيقة ، ففى الأحوال القليلة ، التى تم الإيقاع فيها بضابط مخابرات معاد ، لم يتم تحديد هويته كضابط مخابرات (وليس مجرَّد جاسوس) إلا عندما تقدَّمت دولته بطلب رسمى لاستعادته ، إذ إنه من المعتاد إنكار هويته الحقيقية ، ما لم تحتم الظروف العكس .

ثم زفر فى عصبية ، مستطردًا :

ـ وكل ما أتمناه ألا نضطر لهذا .

تبادل المساعدون نظرة صامتة أخرى ، قبل أن يتمتم أحدهم :

أعتقد أن سيادة العميد (أدهم) يفضِّل الموت عن هذا .

أشار المدير بسبَّابته ، قائلاً :

ـ بالضبط .

سأله أحد مساعديه فى اهتمام مباغت :

ـ سيِّدى .. لماذا تبدو شديد التوتر ، أكثر من ذى قبل ؟

حك المدير ذقنه بسبَّابته ، وهو يتمتم :

ـ هذا أمر طبيعى .

ثم نقر بأصابعه على خريطة (تل أبيب) ، مستطردًا :

ـ فلقد حان موعد التحول الأساسى فى الخطة .

أدار عينيه فى وجوههم ، قبل أن يضيف ، فى مزيج من التوتر والحزم :

ـ وهذا يعنى أن (ن ـ ١) سيواجه الخطر الحقيقى .... كل الخطر .

نطقها ، فتبادل الجميع نظرة صامتة أخرى ..

نظرة حملت هذه المرة كل ما تموج به أعماق المدير من توتر وقلق وعصبية وانفعال ..

مع مزيج مما يشعرون به جميعًا ..

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يهبط على الحجرة صمت مهيب ..

رهيب ..

ثقيل ..

وأن تتجه الأنظار والأفكار كلها إلى هناك ..

إلى قلب (تل أبيب) ..

قلب الخطر ..

كل الخطر ..

★ ★ ★

ألقت (ليليان) ، زوجة (دافيد بلو) ، نظرة على ساعتها ، التى أشارت عقاربها إلى منتصف الليل تمامًا ، قبل أن تواصل عملها الدقيق ، فى جهاز إليكترونى صغير ، فى حجم علبة ثقاب ، وهى تغمغم :

ـ أعتقد أن (أدهم صبرى) نفسه لم يكن ليفعل ما هو أفضل .

ثم استخدمت مفكًا صغيرًا ، لتحكم إغلاق الجهاز ، الذى امتدّ من أحد أطرافه جزء من سلك للهاتف ، وقلبته بين أصابعها فى إعجاب ، متابعة :

ـ هذا سيقنع الجميع بالتأكيد ، وخاصة عندما يراجعون الفترة التى قضاها (أدهم) هنا ، ونحن فاقدى الوعى ، فلو أنه أحضر هذا الجهاز معه ، لكان لديه الوقت الكافى لتوصيله بمنتهى الدقة .

ونهضت من مقعدها فى خفة ونشاط ، واتجهت إلى الهاتف الرئيسى فى الصالة ، وهى تواصل حديثها مع نفسها :

ـ وبجهاز عبقرى كهذا ، يمكنه الاتصال من أى هاتف خارجى ، فيتم تحويل المحادثة فورًا إلى هاتفنا ، بحيث تلتقط أجهزة رصد الرقم الطالب(*) رقمنا نحن ، وليس رقم الهاتف الذى يتحدّث منه .

كانت تشعر بإعجاب شديد بعملها ، حتى إنها توقّفت عند البار الصغير فى صالة المنزل ؛ لتصب

(★) أجهزة رصد رقم الطالب ، أو الـ (Caller ID) : عبارة عن جهاز صغير ، يعمل من خلال السنترال الرئيسى ، لتحديد رقم الشخص الذى يطلبك وتسجيله ، قبل أن ترفع سماعة الهاتف ، ولقد تم إدخال هذه الخدمة إلى (مصر) مؤخرًا .

لنفسها كأسًا من الخمر ، رفعتها عاليًا ، وهى تهتف :
ـ فى صحة انتصارنا .
ثم جرعته دفعة واحدة ، ووجهها يحتقن بضع لحظات ، ثم يستعيد صفاءه ، وهى تطلق ضحكة واثقة ظافرة ، مكملة :
ـ وهكذا سيسير كل شىء على ما يرام ؛ فلو أفلحت الخطة (أ) فى الإيقاع بالسيِّد (أدهم صبرى) ، سينال (دافيد) كل التقدير والثناء ، باعتباره الشخص الجرىء ، الذى أصدر هذا الأمر ، أما لو فشلت ، فسيصبح (أدهم صبرى) نفسه هو المسئول ..
ورفعت أحد حاجبيها ، وهى تزيح المنضدة الصغيرة ، التى يستقرّ فوقها الهاتف ، متابعة فى حماس :
ـ المهم الآن أن يتمّ توصيل الجهاز بمهارة ، ثم إزالة كل البصمات عنه ، ووضعه بحيث يمكن أن يختفى عن أعيننا ، على نحو يقنع الجميع .
أطلقت ضحكة ظافرة محدودة ، ثم هبطت لترقد على ظهرها أرضًا ، وتنزلق فى خفة أسفل المنضدة ، وهى تحمل الجهاز الإليكترونى الصغير ، و ...

وفجأة ، انتفض جسدها كله فى عنف ، واتسعت عيناها عن آخرهما ، وهى تحدق فى جهاز إليكترونى صغير آخر ، التصق بسلك الهاتف ، فى دقة مدهشة ..
وبكل انفعالها وتوترها ، صرخت :
ـ ما هذا بحق الشيطان ؟!
والطريف أنها ألقت السؤال ، وهى تعرف جوابه جيِّدًا ..
فذلك الذى تتطلَّع إليه ، كان جهاز تنصُّت آخر ، يعمل بكفاءة منذ فترة طويلة ، لينقل كل همسة تدور فى المكان ..
جهاز وضعه شخص آخر ..
شخص يدعى (أدهم) ..
(أدهم صبرى) ..

★ ★ ★

انعقد حاجبا (جولدمان) فى شدة ، وهو يلوِّح بيده فى عصبية ، هاتفًا :
ـ منتصف الليل ، ولم توقع بذلك الشيطان بعد .
غمغم (دافيد) ، وهو يراجع آخر بيانات الكمبيوتر فى توتر :

- إجراءات الخطة (أ) تسير على قدم وساق ، ولم يعد أمام الرجال سوى دائرة صغيرة ، لا يزيد نصف قطرها على ستمائة متر .

هتف (جولدمان) :

- ولكنه منتصف الليل .

استدار إليه (دافيد) ، قائلاً :

- لست أظن (أدهم صبرى) يتبع نظرية (سندريلا)[*] .

احتقن وجه (جولدمان) فى غضب ، وهو يهتف :

- هل تجد فى نفسك القدرة على السخرية ، فى موقف كهذا ؟!

قلب (دافيد) كفيه ، مجيبًا فى عصبية :

(★) سندريلا : قصة من الأدب الشعبى الأوروبى عن شابة جملية ، دأبت زوجة أبيها على تعذيبها وامتهانها ، لترعى ابنتيها من زوج سابق ، وعندما أعلن أمير البلاد عن إقامة حفل كبير ؛ لاختيار زوجة المستقبل ، رفضت زوجة الأب حضور (سندريلا) الحفل ، ولكن ساحرة طيبة منحت (سندريلا) الجميلة ثوبًا رائعًا ، وعربة أنيقة ، بشرط أن تترك الحفل عند منتصف الليل تمامًا ، وعندما فعلت (سندريلا) ، تركت حذاءها خلفها ، وبوساطته عثر عليها الأمير وتزوجها ، وأصبحت أميرة البلاد .

- أية سخرية ؟! إننا نبذل قصارى جهدنا طوال الوقت ، ولم ننعم بالنوم سوى ساعات معدودة ، وأنا أراجع تقارير وتنبؤات الكمبيوتر طوال الوقت ، وآلاف الأسماء فى القوائم ، التى نتلقاها من فرق التفتيش طوال الوقت ، فما الذى يمكننى أن أفعله أكثر من هذا ، لمجرَّد أن عقارب الساعة قد أشارت إلى منتصف الليل ؟!

صاح به (جولدمان) :

- هل تريد معرفة ما ينبغى أن تفعله أكثر من هذا ؟! سأخبرك أنا ما ينبغى أن تفعله يا (دافيد) .. أن تترك هذا الكمبيوتر السخيف ، وتخرج إلى الشارع ، لمتابعة الموقف بنفسك .

أشار (دافيد) إلى الكمبيوتر ، هاتفًا :

- هذا الكمبيوتر السخيف هو أملنا الوحيد فى الـ ...

بتر عبارته بغتة ، وهو يحدِّق فى شاشة الكمبيوتر بدهشة بالغة ، قبل أن يهتف :

- يا للشيطان !

ارتجف جسد (جولدمان) من فرط الانفعال ، وهو يهتف به :

ـ ماذا هناك ؟!

صاح (دافيد) ، وهو يلتفت فى سرعة إلى الكمبيوتر ، ويضرب أزراره فى انفعال :

ـ الكمبيوتر أورد اسمى ثلاث مرات ، فى قوائم المتابعة ، ويؤكد أننى أبرزت هويتى الشخصية ، غير القابلة للتزوير ، لرجال التفتيش ، فى كل مرة اعترضوا طريقى ، وآخرها منذ ربع الساعة فحسب ، عند قلب المدينة .

ارتفع حاجبا (جولدمان) فى دهشة متوترة ، وهو يهتف :

ـ يا للشيطان ! ولكنك لم تغادر المكتب ، منذ ...

صاح (دافيد) فى حنق ، دون أن ينتبه إلى مقاطعة رئيسه ، وهو ينتزع حافظته من سترته فى عصبية :

ـ أخشى ما أخشاه أن ..

كان يقلب حافظته ، بحثًا عن هويته غير القابلة للتزوير ، وهو ينطق عبارته ، لذا فقد بترها فى سخط بلا حدود ، وهو يصرخ :

ـ اللعنة ! هذا ما كنت أخشاه بالفعل .. لقد سرق

هويتى غير القابلة للتزوير ، عندما أفقدنى الوعى ، وها هو ذا يجوّل بها فى طرقات المدينة طوال الوقت ، ساخرًا من كل ما اتخذناه وقمنا به ، من إجراءات معقدة .

أمسك (جولدمان) كتفه فى قوة ، قائلاً :

ـ (أدهم صبرى) يحمل هوية أصلية لضابط فى (الموساد) .. يا لها من مصيبة كبيرة !

هتف (دافيد) فى جنون :

ـ بل قل إنها كارثة .

أجابه (جولدمان) فى حزم :

ـ فليكن .. إنها كارثة .

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

ـ وسنبذل قصارى جهدنا ؛ لنطبق عليها نظرية الاستفادة من الكوارث .

التفت إليه (دافيد) فى حركة حادة ، قائلاً :

ـ ماذا تعنى ؟!

أجابه فى سرعة وحماس :

ـ أعنى أنه ، وعلى الرغم من حجم الكارثة ، فإننا نعرف الآن أين (أدهم صبرى) ، وكيف يبدو بالضبط ،

وهذه فى رأيى ، أكثر المعلومات خطورة ، منذ بدأ تنفيذ الخطة (أ) .

جفَّ حلق (دافيد) ، وهو يقول :

ـ هل تعنى أن ...

لم يمنحه (جولدمان) الفرصة لإتمام عبارته ، وهو يقول فى حماس :

ـ بالضبط .. أعنى أن نكثِّف جهودنا الآن لمحاصرته فى ذلك الموقع المحدود ، والانقضاض عليه بكل قوتنا ، قبل أن يدرك أن أمره قد انكشف .

ثم انتقل إلى مكتبه ، وهو يشير إلى أحد رجاله فى حماس ، قائلاً :

ـ صلنى بقائد التفتيش ، فى المنطقة التى شوهد فيها ذلك الشيطان لآخر مرة .

أسرع الرجل يتمّ الاتصال ، فى حين تألَّقت عينا (جولدمان) فى شدة ، وهو يقول :

ـ أعتقد أن الوقت قد حان ، ليدفع السَّيد (أدهم صبرى) ثمن سخريته المستفزة ، وعبثه السخيف معنا .

نطقها ، وتألقت عيناه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

★ ★ ★

دسّ (أدهم) كفيه فى جيبى سرواله ، وهو يتحرَّك فى هدوء شديد ، فى شوارع قلب (تل أبيب) ، وعيناه تتابعان عمليات التفتيش والبحث فى سخرية ، وتوقَّف لحظة بالقرب من إحدى فرق التفتيش ، مغمغمًا :

ـ تُرى متى ستنتبه إلى ضياع هويتك غير القابلة للتزوير يا عزيزى (دافيد بلو) ؟! لقد سئمت حملها طوال الوقت .

هزَّ كتفيه فى شىء من اللامبالاة ، وعاد يواصل سيره ، وهو يلوِّح بيده لرئيس فريق التفتيش ، قائلاً :

ـ واصل عملك يا رجل .. إننا لن ننام ، قبل أن نوقع بذلك الجاسوس المصرى .

كان الرجل يتحدَّث عبر اللاسلكى فى تلك اللحظة ، فانعقد حاجباه بشدة ، ولم يحاول ردّ تحيته ، وإنما تابعه ببصره لحظة ، قبل أن يهتف فى صرامة :

ـ لحظة يا أدون (بلو) .

التفت إليه (أدهم) فى هدوء ، متسائلا :
- ماذا هناك ؟!
أشار الضابط إلى رجاله ، وهو يقول فى صرامة :
- مجرَّد سؤال .
ثم توقَّف أمامه ، متسائلاً :
- هل لى فى الاطلاع على هويتك مرة أخرى ؟!
رفع (أدهم) حاجبيه وخفضهما ، قائلاً :
- الاطلاع على هويتى مرة أخرى ؟! أتدرك ما يعنيه هذا ؟!
سأله الضابط ، فى شىء من السخرية :
- ما الذى يعنيه ؟!
هوى (أدهم) على فكه بغتة بلكمة كالقنبلة ، هاتفًا :
- أن لحظة المواجهة قد حانت .
تحرَّك رجال القوات الخاصة فى سرعة ، مع تلك اللكمة ، وارتفعت فوهات مدافعهم الآلية نحو (أدهم) ، إلا أن هذا الأخير كان يتحرَّك كالبرق ، وهو يلتقط قائدهم ، قبل أن يسقط أرضًا ، ثم يلتقط مسدسه من حزامه ، ويلصقه بصدغه ، قائلاً فى صرامة :

- خطوة واحدة ، وأنسف رأسه بلا رحمة .
تبادل الجنود نظرة متوترة ، قبل أن يهتف أحدهم :
- لن يمكنك الخروج من هذا الموقف سالمًا .
هزَّ (أدهم) كتفيه ، وهو يقول فى سخرية :
- لا بأس يا رفيق المشاعر ، لا تقلق نفسك بشأنى .
كان يتراجع فى بطء حذر ، نحو فندق من فنادق وسط المدينة ، وهو يجرّ الضابط الفاقد الوعى خلفه فى قوة ، فاقترب الجنود منه أكثر وأكثر ، وأشار أحدهم بيده ، وهو يقول :
- إنهم يعلمون بأمرك .. لن تجد وسيلة واحدة للخروج من هذا الموقف .. الاستسلام أفضل بالنسبة لك .
قال (أدهم) فى سخرية :
- حقًا ؟! من الواضح إذن أن معلوماتك قليلة للغاية ، فى هذا الشأن يا رجل .
ثم انتزع قناع (دافيد) ، وألقاه أرضًا ، وسحقه بقدمه ، وهو يعيد تصويب المسدس فى سرعة ، إلى صدغ الضابط الإسرائيلى الفاقد الوعى ، متابعًا :
- فما إن يرى رجالكم هذا الوجه ، حتى يصيبهم جنون وحشى ، لا يهدأ إلا بإراقة الدماء .

قال الجندى فى صرامة :

ـ ستراق الدماء أيضًا ، لو رفضت الاستسلام .

قال (أدهم) فى سخرية :

ـ حقًا ؟!

ثم دفع الضابط الفاقد الوعى نحو رجاله بغتة ، هاتفًا :

ـ استعد لإراقتها إذن .

وفى قفزة مدهشة ، اندفع نحو ذلك الفندق ، وعبر بوَّابته الأنيقة ، والجندى يصرخ فى غضب :

ـ أطلقوا النار .

انطلقت رصاصات الجنود تنسف بوَّابة الفندق ، وتثير موجة هائلة من الذعر والهلع ، فى المنطقة كلها ، فى نفس اللحظة التى اندفع فيها (أدهم) داخل المكان ، وهو يهتف بموظف الاستقبال فى سخرية :

ـ لا داعى لحجز جناح فاخر يا رجل .. سأكتفى بالموجود .

قالها ، ثم انحرف نحو سلم الطوارئ ، ودفع بابه ، ليختفى خلفه ، فى نفس اللحظة التى اندفع فيها الجنود الإسرائيليون داخل الفندق ، فهتف بهم موظف الاستقبال المذعور :

ـ سلم الطوارئ .. لقد اختفى هناك .

صاح أكبر الجنود رتبة برفاقه :

ـ حاصروا الفندق كله ، وأطلقوا النار على كل من يحاول الخروج منه بلا إنذار .

ثم التفت إلى فريق منهم ، مستطردًا بلهجة آمرة :

ـ اتبعونى .

كان الفندق مثاليًا للحصار ، على نحو يختلف عن كل المبانى المحيطة به ، إذ كانت تحيط به ، من كل الاتجاهات ، حديقة واسعة ، بها حوض سباحة كبير ، بحيث لا يمكن أن يقفز منه الشخص إلى أى مبنى آخر ، خاصة وأن أقرب مبنى يبعد عنه عشرين مترًا على الأقل ..

ولقد انتشر الجنود فى تلك الحديقة ، وكل منهم متحفز بمدفعه الآلى ، لإطلاق النار على أى شخص يحاول الخروج من الفندق ، لأى سبب كان ..

أما ذلك الفريق ، الذى تبع أكبرهم رتبة ، فقد اندفع يصعد فى درجات السلم ، خلف (أدهم) ، الذى بدا وقع أقدامه واضحًا ، وهو يسبقهم بطابقين على الأقل ..

وفى صرامة غاضبة ، هتف كبير الجنود :

- توقف يا رجل ، وإلا أطلقنا النار .

جاوبته ضحكة ساخرة من (أدهم) ، فصاح فى غضب :

- أطلقوا النار .

انطلقت رصاصات الجنود فى ممر سلم الطوارئ ، وتردَّد دويها فى المكان كله ، ممتزجًا بوقع أقدام (أدهم) ، وهو يصعد طابقًا آخر ، ثم بدوى رصاصات مسدسه ، وهو ينسف قفل باب سلم الطوارئ ، الذى يقود إلى ذلك الطابق من الفندق .

وفى حدة ، هتف كبير الجنود :

- الحقوا به .. امنعوه من الفرار بأى ثمن .

مع آخر حروف عبارته ، ارتفع رنين جهاز الاتصال اللاسلكى الخاص به ، فالتقطه فى سرعة ، هاتفًا :

- فرقة التفتيش (واى) .. من المتحدِّث ، فى هذه الساعة ؟!

أتاه صوت (جولدمان) ، وهو يقول :

- هنا (مائير جولدمان) ، رئيس إدارة العمليات الخاصة فى (الموساد) .. ما الموقف عندك ؟!

أجابه الرجل ، فى سرعة واحترام :

- إننا نطارد الجاسوس يا أدون (جولدمان) .. لقد حاصرناه فى فندق (......) ، فى وسط المدينة .

هتف (جولدمان) :

- عظيم .. إننا فى الطريق إليكم .. لا تسمحوا له بالفرار ، مهما كان الثمن .. هل تفهم ؟! مهما كان الثمن .

أجابه الجندى فى حزم :

- أفهم جيِّدًا يا أدون (جولدمان) .. أفهم جيِّدًا .

قالها ، وهو يندفع مع رجاله إلى ذلك الطابق ، الذى اختفى عنده (أدهم) ، فهتف به أحد رجاله ، وهو يشير إلى إحدى حجرات الفندق :

- لقد اختفى هناك .

سأله الجندى فى حزم :

- أأنت واثق ؟!

هتف به جندى آخر :

- لقد رأيته يدخلها بنفسى .

انعقد حاجبا الجندى فى صرامة ، وهو يقول :

- سنصنع منها مقبرة له إذن .

ثم أشار إلى أحد رجاله ، هاتفًا :

- قم بتغطيتى .

واندفع نحو تلك الحجرة ، هاتفًا :

- استسلم يا رجل .. هذا إنذار أخير .

جاوبته ضحكة ساخرة من (أدهم) ، مع سيل من الرصاصات ، فصاح فى غضب :

- فليكن أيها الجاسوس .. أنت أردت هذا .

وانتزع من حزامه قنبلة يدوية ، جذب فتيلها بأسنانه ، قبل أن يلقيها داخل حجرة الفندق ، صائحًا برجاله :

- ابتعدوا .

ومع آخر حروف كلماته ، دوى الانفجار ..

انفجار محدود ، أطاح بباب الحجرة فى عنف ، مع كمية هائلة من الدخان ، كادت تغطى الممر كله ..

ولثانية أو ثانيتين ، ظلَّ الكل صامتًا ، قبل أن يهتف كبيرهم :

- اقتحموا المكان .

اندفع الجنود إلى الحجرة ، وراحوا يفتشونها فى توتر ، وأحدهم يهتف :

- لا يوجد أحد هنا .

صاح قائده فى حدة :

- مستحيل !! كلكم سمعتموه يضحك بسخرية ، ورأيتم الرصاصات التى أطلقها .. إنه هنا حتمًا .

أتاه صوت أحد الجنود من الشرفة ، يهتف :

- إنه هنا .

أسرعوا جميعًا إلى الشرفة ، وتعلَّق بصرهم بالرجل الملقى على وجهه فيها ، وقال أحدهم فى توتر ، وهو يصوِّب إليه مدفعه الآلى :

- يبدو أنه لم يمت .. لا توجد إصابات واضحة .. لقد فقد وعيه من شدة الانفجار فحسب .

أتاه صوت من خلفه ، يقول فى صرامة :

- هذا من حسن حظكم .

استدار الجميع إلى (جولدمان) و(دافيد) ، اللذين دلفا إلى المكان فى انفعال ، والأوَّل يقول فى عصبية :

- فلو قتلتموه لأغضبنى هذا بشدة .

سأله كبير الجنود فى توتر :

- من أنت بالضبط ؟!

أبرز (جولدمان) هويته غير القابلة للتزوير ، وهو يقول :

- (مائير جولدمان) .

اعتدل الجندى على نحو عسكرى ، وهو يؤدى التحية فى قوة ، هاتفًا :

- تم تنفيذ الأوامر يا أدون (جولدمان) .

أشار (جولدمان) إلى الرجل الملقى على وجهه ، وهو يقول فى توتر شديد :

- هذا لو أنكم قد أوقعتم بالرجل المنشود .

- تردَّد (دافيد) لحظة ، ثم تقدَّم نحو الشخص الملقى فى الشرفة ، وانحنى يدس يده فى جيبه ، ثم أخرجها بهويته غير القابلة للتزوير ، وحدَّق فيها لحظة ، قبل أن يجذب الرجل من كتفه ، ويقلبه على ظهره ..

وما إن وقع بصرا (جولدمان) و(دافيد) على وجهه ، حتى انتفض جسد الثانى ، فى انفعالٍ شديد ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، فى حين تألقت عينا الأوَّل فى انفعال ظافر ، وهو يقول بأنفاس مبهورة :

- أخيرًا .

هذا لأن ملامح ذلك الشخص ، الفاقد الوعى أمامهم ، فى شرفة تلك الحجرة ، لم تكن تحتمل أدنى شك ..

إنها نفس الملامح ، التى يحفظها كل رجل مخابرات فى العالم ، عن ظهر قلب ..

ملامح (أدهم) ..

(أدهم صبرى) .

★ ★ ★

انتهى الجزء الثانى بحمد الله

ويليه الجزء الثالث والأخير بإذن الله

(اللَّمسة الأخيرة)

رقم الإيداع : ٣٦١٩

المستحيل

- كيف يمكن أن ينجو (أدهم صبرى) ، من ذلك الفخ المحكم فى (تل أبيب) ؟!
- ما الذى فعله قادة (الموساد) ، للظفر برجل المستحيل ، فى قلب (اسرائيل) ؟!
- ترى هل يمكن أن ينجو (أدهم) من أنياب ذئاب (الموساد) ، وهل ينجح مرة أخرى فى قهر (المستحيل) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل بعقلك وكيانك مع الرجل .. (رجل المستحيل)

العدد القادم : اللمسة الأخيرة



د. نبيل فاروق

٢٦٨٩

رجل المستحيل

سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

123

الثمن فى مصر ٢٠٠ ص
ومايعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم